

المحاضرة 01: البنيوية التكوينية: المفهوم والأسس

1. المقدمة:

ظهرت البنيوية التكوينية في منتصف القرن العشرين كمحاولة متطورة لحل إحدى التوترات المركزية في النظرية الاجتماعية والنقد الأدبي: العلاقة بين البنى الدائمة والتغيير التاريخي. طوّر هذا الإطار بشكل أساسي الفيلسوف وعالم الاجتماع الروماني-الفرنسي لوسيان غولدمان (1913-1970)، وسعى لتجاوز حدود كل من البنيوية الصارمة والتاريخانية الحتمية.

في جوهرها، تُعرّف البنيوية التكوينية على أنها "مزيج من نظرية المعرفة التكوينية التي طورها جان بياجيه والماركسية الجدلية التي صاغها لوكاتش". آمن غولدمان بأن مفكرين مثل ماركس وهيغل وفرويد قد استخدموا هذا المنهج ضمناً، رغم أنهم لم يسموه رسمياً. وقد دفعته رغبته في خلق أساس معرفي جديد لفهم الإبداعات الثقافية – ولا سيما الأدب – إلى اعتبارها منتجات لبنيات اجتماعية ديناميكية تشكّل وتتشكل عبر النشاط الجماعي للإنسان.

غالباً ما أسيء فهم نظرية غولدمان في عصره. فقد تجاهله العديد من النقاد باعتباره مجرد تابع لجورج لوكاتش أو انتقدوا عمله على أنه انتقائي. ومع ذلك، يكشف الفحص الشامل عن توليفة أصلية لفئات من بياجيه ولوكاتش وماركس، مشكّلة ما أطلق عليه "النموذج المُصاغ" لعلم اجتماع الأدب. ستستكشف هذه المحاضرة الأسس المفاهيمية والمبادئ الأساسية والتطبيقات المنهجية والإرث الدائم للبنيوية التكوينية.

2. الأسس النظرية: دعائم توليفة غولدمان

ترتكز البنيوية التكوينية على دعامين نظريتين أساسيتين، جمعهما غولدمان ببراعة لمعالجة الطبيعة الساكنة للبنيوية الكلاسيكية.

2.1 نظرية المعرفة التكوينية لـ جان بياجيه

تتلمذ غولدمان مباشرة على يد عالم النفس وعالم المعرفة السويسري جان بياجيه، الذي كان تأثيره أساسياً. تدرس "نظرية المعرفة التكوينية" لبياجيه تطور البنى المعرفية عبر التفاعل مع البيئة. من المفاهيم الرئيسية التي تبناها غولدمان:

التوازن: العملية التي تحقق من خلالها البنى المعرفية توازناً مؤقتاً عبر الاستيعاب والتكيف.

المراحل التطورية: البنى ليست ساكنة بل تتطور عبر مراحل متعاقبة.

جدلية الذات-الموضوع: تنشأ المعرفة من التفاعل بين الذات والعالم، مشكّلة "حلقة معرفية".

بالنسبة لبياجيه، وبالتالي لغولدمان، للبنى تكوّن. فهي تُبنى، وتصبح غير مستقرة، وتُعاد بناؤها بأشكال

جديدة. وقدّم هذا لغولدمان نموذجاً لشرح كيف تتطور البنى الاجتماعية والعقلية تاريخياً، متجاوزاً التحليل التزماني (الساكن) السائد في البنيوية المبكرة.

2.2 الماركسية الجدلية وإرث لوكاتش

من التقليد الماركسي، ولا سيما عبر الفيلسوف المجري جورج لوكاتش، استمد غولدمان مفاهيم تربط البنى بالواقع الاجتماعي والاقتصادي.

الكلية (الكلية النسبية): لا يمكن فهم الظواهر إلا في سياق الكليات الاجتماعية الأوسع المُهيكلية.

رؤية العالم: مجموعة متماسكة من التطلعات والمشاعر والأفكار التي توحد مجموعة اجتماعية (مثل

الطبقة) وتعبّر عنها في الإبداعات الثقافية.

الوعي الكامن مقابل الوعي الفعلي: أقصى درجات الوعي الممكنة لمجموعة اجتماعية في ضوء موقعها،

مقابل وعيها الفعلي المحدود غالباً.

ومع ذلك، انحرف غولدمان عن الماركسية الأرتوذكسية. فقد جادل بأن البنى العقلية المهمة لا

تتشكل فقط على مستوى الطبقة، بل يمكن أن تنشأ داخل أي مجموعة اجتماعية متماسكة، وأن الفرد يمكنه

الانتماء إلى عدة مجموعات من هذا القبيل. العامل الجماعي للإبداع هو ما أسماه "الذات فوق الفردية".

2.3 مواجهة البنيوية الكلاسيكية

لفهم إبداع غولدمان، يجب فهم البنيوية الأرتوذكسية التي سعى لإصلاحها. تفترض البنيوية الكلاسيكية،

المستمدة من لسانيات فرديناند دي سوسور، أن عناصر النظام (مثل الكلمات في لغة) لا تحمل معنى جوهرياً.

ينشأ معناها فقط من علاقاتها التمايزية داخل نظام مغلق. وهي تُقدّم:

التحليل التزماني (النظام في نقطة زمنية واحدة) على التحليل التزماني (التطور التاريخي).

قوة البنية المُحدّدة على الفعل أو التعبير الفردي.

" منطوق البنية" باعتباره الواقع الأساسي الذي يجب الكشف عنه.

وافق غولدمان على أن البنى ضرورية لفهم المعنى، لكنه وجد البنيوية الكلاسيكية لاهوتاريخية وساكنة. عارضها بما أسماه "الذرية" (التفسيرات السببية البحتة) و"البنيوية غير التكوينية" (اعتبار البنى دائمة). وكان حله هو ضخ البعد التكويني التتموي في التحليل البنيوي.

3. المبادئ الأساسية للبنيوية التكوينية

تتبلور توليفة غولدمان في عدة مبادئ محددة توجه البحث.

3.1 جدلية البنية والتكوّن

بالنسبة لغولدمان، فإن الواقع في حالة دائمة من "الهيكلة والتهشيم". لكل بنية أصل (تكوّن) ومسار تطوري. فهم الظاهرة الثقافية يتطلب تحليلاً مزدوجاً:

الفهم البنيوي: وضع الظاهرة داخل كليتها النسبية المتماسكة ذات الصلة.

الفهم التكويني: تتبع العملية التاريخية التي نشأت من خلالها المجموعة المنتجة لها، والبنية نفسها.

3.2 الذات فوق الفردية ورؤية العالم

العامل الرئيسي لغولدمان ليس العبقورية الفردية ولا الطبقة المجردة، بل الذات فوق الفردية – مجموعة اجتماعية (مثل طبقة، ولكن أيضاً تجمعات أخرى) تحقق وحدة متماسكة في الاستجابة لموقفها التاريخي. يتبلور هذا الوعي الجمعي في "رؤية للعالم"، وهي بنية عقلية ذات تماسك أعلى تتناول المشكلات الإنسانية الأساسية. الإبداعات الثقافية، وخاصة الأعمال الأدبية العظيمة، هي التجسيد الموضوعي لهذه الرؤية للعالم. "العبقري" المؤلف هو الذي يستطيع التعبير عن هذه البنية العقلية الجماعية بشكل متماسك ومتقدم بشكل خاص.

3.3 مركزية "البنية الدالة" والتشابه البنيوي

الجسر بين المجتمع والنص هو مفهوم "البنية الدالة". يفترض غولدمان تشابهاً شكلياً – وليس في المحتوى – بين بنية العمل الأدبي (مثل شكل الرواية) والبنية العقلية للذات فوق الفردية. تولّد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية لمجموعة ما بنية عقلية، تجد تعبيراً لها في بنية جمالية مقابلة. كما تلخص إحدى المراجع، "فالبنية ذات المعنى للإبداع الأدبي ترتبط جديلاً بالبنية العقلية لهذا الفاعل المتعالي، الذي بدوره في علاقة جدلية مع البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية".

3.4 تصور ديناميكي للتاريخ والمستقبل

وجهة نظر غولدمان تتطلع إلى الأمام بشكل أساسي. فقد جادل بأن "كل حقيقة إنسانية... لا يمكن فهمها إلا كتوتر فعلي للقوى في حالة توازن ديناميكي، موجّه نحو المستقبل ومحاصر تجاهه بفعل قوى تعمل في الاتجاه المعاكس". لذا يجب أن يأخذ التحليل في الاعتبار كيف تتوجه البنى نحو الاحتمالات والتحويلات المستقبلية.

4. المنهجية: تطبيق البنيوية التكوينية على علم اجتماع الأدب

اقترح غولدمان منهجاً صارماً متعدد الخطوات للنقد الاجتماعي للأدب، ينتقل من النص إلى المجتمع والعودة مرة أخرى.

يتجسّد هذا المنهج في عمل غولدمان الرئيسي، "الإله الخفي" (1955)، حيث يحلّل الرؤية التراجيدية في "خواطر" باسكال وتراجيديات راسين. فهو يحدد بنية مشابهة من "التأرجح الجدلي" بين الرفض الجذري للعالم والمساومة معه. ثم يربط هذه البنية بالموقع الاجتماعي لـ نبلاء الرداء (الأرستقراطية القضائية) في فرنسا القرن السابع عشر، وهي مجموعة محاصرة بين الملكية والبرجوازية الصاعدة، غير قادرة على تبني أي من العالمين بشكل كامل.

5. الخاتمة

تبقى البنيوية التكوينية للوسيان غولدمان إطاراً نظرياً قوياً ومنتدياً. إنها تمثل توليفة منضبطة ومبدعة، تستخلص من أعمال بياجيه وماركس ولوكاتش منهجاً متماسكاً لفهم الإبداع الثقافي. بالإصرار على أن البنى هي في آن حقيقية وتاريخية، وأن المعنى ينشأ من جدلية بين الذات الجماعية وعالمها، وأن الفن العظيم يعبر عن الوعي الكامن الأقصى لمجتمع إنساني، قدّم غولدمان مخرجاً من الخيار الزائف بين الحتمية الصارمة والاستقلالية الجمالية البحتة.

في مشهد أكاديمي لا يزال يعاني من علاقة النص بالسياق، والفعل بالبنية، فإن دعوته لمنهج يكون في الوقت نفسه بنيوياً وتكوينياً وجدلياً لا تزال تلقى صداها. وكما كان هو نفسه قد صاغها، فإن البنيوية التكوينية ليست نظاماً مغلقاً بل بنية فكرية ديناميكية، تتوجه نحو الفهم المستقبلي للنضال الإنساني من أجل المعنى.

المحاضرة 02 أسس البنيوية التكوينية: رؤية العالم

1 المقدمة:

في هذه المحاضرة حول "أسس البنيوية التكوينية: رؤية العالم". اليوم سنستكشف ليس مجرد نهج منهجي، بل منظور فلسفي شامل يقدم رؤى عميقة لكيفية ترابط الوعي البشري والهيكل الاجتماعية (أنظمة علاقات تتكون وتتغير من خلال الممارسات والأفعال اليومية للأفراد والجماعات، في عملية جدلية مستمرة بين الفعل البشري والبناء الاجتماعي) والإنتاجات الثقافية عبر الزمن. تمثل البنيوية التكوينية تركيباً مميزاً ظهر في منتصف القرن العشرين كاستجابة لقصور كل من البنيوية الكلاسيكية والمادية التاريخية الحتمية. تدعونا هذه الرؤية العالمية لرؤية الواقع البشري ليس كمجموعة من الأشكال الثابتة أو كسلسلة سببية خطية، بل كعملية

ديناميكية من البناء وإعادة البناء المستمر، حيث يظهر المعنى من خلال العلاقة الجدلية بين الوعي الجماعي والظروف المادية.

في جوهرها، تتناول البنيوية التكوينية أسئلة شغلت الفكر الغربي لقرون: كيف تشكل الهياكل الاجتماعية الوعي الفردي؟ كيف تعكس القطع الأثرية الثقافية—الأدب، الفن، الأيديولوجيا—وتحول رؤى العالم لمبدعيها؟ ما العلاقة بين الفاعلية البشرية والحتمية التاريخية؟ من خلال دمج رؤى من الجدلية الماركسية، علم النفس التنموي، و اللسانيات البنيوية، تقدم البنيوية التكوينية إطاراً فريداً لفهم هذه الأسئلة الخالدة. كما سنرى، تم تطوير هذا النهج بشكل أساسي من قبل مفكرين رئيسيين: عالم الاجتماع الفرنسي لوسيان غولدمان، الذي طبقه على النظرية الاجتماعية والنقد الأدبي، وعالم النفس السويسري جان بياجيه، الذي طور نسخة موازية لفهم التطور المعرفي. شارك كلاهما الافتراض الأساسي بأن الهياكل ليست أشكالاً أفلاطونية أبدية، بل إنشآت تاريخية تتطور من خلال النشاط البشري.

سنتطوّر هذه المحاضرة في ستة أجزاء. أولاً، سنفحص الأسس الفلسفية للبنيوية، متتبعين أصولها في اللسانيات والأنثروبولوجيا. ثانياً، سنتعمق في تركيب غولدمان المحدد للبنيوية مع الفكر الماركسي. ثالثاً، سنستكشف مساهمات البنيوية التكوينية لبياجيه في علم النفس التنموي. رابعاً، سندرس كيف تم تطبيق هذه الرؤية العالمية على التحليل الأدبي والثقافي. خامساً، سننظر في قيود وانتقادات البنيوية التكوينية. أخيراً، سنختتم بالتأمل في أهميتها الدائمة كرؤية عالمية شاملة لفهم الجدلية بين الوعي البشري والواقع الاجتماعي.

2 الأسس الفلسفية: من البنيوية إلى البنيوية التكوينية

لفهم البنيوية التكوينية، يجب علينا أولاً وضعها ضمن الحركة الفكرية الأوسع للبنيوية التي ظهرت في أوائل القرن العشرين. البنيوية، كما يعرفها الفيلسوف سيمون بلاكبيرن بإيجاز، هي "الاعتقاد بأن ظواهر الحياة البشرية لا يمكن فهمها إلا من خلال علاقاتها المتبادلة. تشكل هذه العلاقات هيكلًا، وخلف الاختلافات المحلية في الظواهر السطحية توجد قوانين ثابتة للهيكلي المجرد". هذه الرؤية الأساسية—أن المعنى ينشأ ليس من عناصر معزولة بل من موقعها داخل نظام من العلاقات—نشأت في نظريات فيرديناند دي سوسير اللغوية، الذي أحدث ثورة في فهمنا للغة بالتمييز بين اللغة (النظام المجرد للغة) و الكلام (استخدامها الملموس).

قدمت اللسانيات البنيوية لسوسير ثلاثة مفاهيم ستكون أساسية لكل الفكر البنيوي اللاحق: أولاً، العلاقة التعسفية بين الدال والمدلول—لا يوجد سبب جوهري لماذا يجب لنمط صوتي معين أن يمثل مفهوماً معيناً. ثانياً، الطبيعة العلائقية للمعنى: تكتسب العلامات أهميتها أساساً من خلال اختلافاتها عن العلامات الأخرى داخل النظام. ثالثاً، أولوية التزامني (النظام في لحظة معينة) على الدياكروني (التطور التاريخي) في فهم كيفية عمل اللغة. تم توسيع هذه المبادئ خارج اللسانيات من قبل عالم الأنثروبولوجيا كلود ليفي ستروس، الذي طبق التحليل البنيوي على أنظمة القرابة والأساطير والممارسات الثقافية، قائلاً إن الهياكل العالمية للعقل البشري تكمن وراء جميع التعبيرات الثقافية.

ومع ذلك، كانت للبنيوية الكلاسيكية، خاصة في شكلها الليفي ستروسي، قيوداً كبيرة سعت البنيوية التكوينية إلى معالجتها. كما لخصت المنظرة النسوية أليسون أسيتير، تميل البنيوية التقليدية إلى التأكيد على أربع أفكار: (1) يحدد الهيكل موقع كل عنصر من الكل؛ (2) لكل نظام هيكل؛ (3) تتناول القوانين البنيوية التعايش وليس التغيير؛ (4) الهياكل هي "الأشياء الحقيقية" التي تكمن تحت المظهر السطحي للمعنى. يترك هذا التركيب مساحة صغيرة للتطور التاريخي، أو الفاعلية البشرية، أو تحول الهياكل عبر الزمن. كان هذا المفهوم الثابت للهيكل هو ما تحدته البنيوية التكوينية، مصراً بدلاً من ذلك على ما سماه غولدمان "عملية البناء والهدم" من خلال الممارسة البشرية.

يجب فهم ظهور البنيوية التكوينية ضمن السياق الفكري لأوروبا ما بعد الحرب، حيث كان الوجودية هي الحركة الفلسفية المسيطرة لكنها تعرضت لانتقادات متزايدة لتركيزها على الذاتية الفردية على حساب المحددات الاجتماعية. صعدت البنيوية إلى الصدارة كبديل، لكن قيودها أصبحت واضحة قريباً. تمثل البنيوية التكوينية مساراً ثالثاً واحداً يعترف بالتحديد البنيوي للوعي مع الحفاظ على إمكانيات التحول التاريخي والفاعلية البشرية. تم تحقيق هذا التركيب من خلال العمل الرائد لـ لوسيان غولدمان، الذي تنتقل الآن إلى فكره.

3 تركيب لوسيان غولدمان: هندسة رؤية عالمية

يقف لوسيان غولدمان (1913-1970) كمهندس مركزي للبنيوية التكوينية كروية عالمية شاملة. كفيلسوف وعالم اجتماع روماني-فرنسي، سعى غولدمان لخلق ما سماه (أساس معرفي مختلف للماركسية)، من خلال الجمع بين المادية الجدلية لجورج لوكاتش ونظرية المعرفة التكوينية لجان بياجيه. كانت بصيرة غولدمان

المركزية: أن البشر هم مخلوقات تسعى للمعنى بشكل أساسي، حيث تولد أنشطتهم الجماعية "رؤى عالمية" وهيكلها متماسكة من الفكر، الشعور، والتطلعات التي تنشأ من ظروفهم المادية وتشكلها في الآن نفسه. هذه الرؤى العالمية ليست إبداعات فردية بل ما سماه غولدمان "مواضيع فائقة للفرد؛ أي "هياكل عقلية جماعية تشاركها المجموعات الاجتماعية التي تتوسط بين الوعي الفردي والواقع الاجتماعي الموضوعي.

وضع غولدمان البنيوية التكوينية بشكل صريح ضد نهجين متنافسين: الذرية والبنيوية غير التكوينية. تسعى الذرية (والتي قصد بها التفسيرات الحتمية البحتة للمجتمع) إلى تفسير الظواهر من خلال علاقات سببية خطية، بينما تنظر البنيوية غير التكوينية إلى الهياكل على أنها دائمة وعالمية. في المقابل، تفهم البنيوية التكوينية الهياكل العقلية على أنها تنشأ وتتغير باستمرار من خلال النشاط البشري—على وجه التحديد، من خلال ممارسة المجموعات الاجتماعية. كما لاحظ غولدمان، "تظهر هياكل عقلية جديدة باستمرار وتتغير الهياكل القديمة باستمرار، الواقع دائماً في عملية بناء وهدم". يمثل هذا المفهوم الديناميكي للهيكلي انحرافاً كبيراً عن البنيوية التقليدية مع الاحتفاظ ببصيرتها الأساسية حول الطبيعة العلائقية للمعنى.

جانب حاسم من نظرية غولدمان هو توسعه لمفهوم ماركس عن الوعي الطبقي. على عكس الماركسيين الأرثوذكس الذين اعتقدوا أن الهياكل العقلية المشتركة تُخلق فقط على مستوى الطبقة، جادل غولدمان بأن مثل هذه الهياكل يمكن أن تنشأ أيضاً داخل مجموعات اجتماعية تتشكل على أسس مختلفة، وأن الأفراد يمكنهم المشاركة في عدة مجموعات من هذا القبيل في وقت واحد. يسبق هذا الاعتراف بتعدد الهوية الاجتماعية التطورات اللاحقة في النظرية الاجتماعية التي تعترف بتقاطع الطبقة، الجنس، العرق، ومحددات أخرى للوعي. بالنسبة لغولدمان، ما يحدد المجموعة كموضوع فائق للفرد ليس فقط الظروف المادية المشتركة بل التجربة الفكرية والعاطفية المشتركة للعالم".

ركز النهج المنهجي لغولدمان على كل من التحليل التزامني والدياكروني. تزامنياً، فحص التناقضات الداخلية داخل هيكل وعلاقته بهياكل أوسع (ما سماه "الكلية النسبية"). دياكرونياً، درس العمليات التاريخية للبناء والهدم التي أدت إلى تشكيل هيكل معين. بشكل مهم، دمج غولدمان بعداً يتوجه نحو المستقبل في تحليله، قائلاً إن "كل حقيقة بشرية... لا يمكن فهمها إلا كتوتر فعلي للقوى في حالة توازن ديناميكي، موجه نحو المستقبل". تميز هذه الانفتاح الزمني البنيوية التكوينية عن الأشكال الأكثر حتمية من المادية التاريخية.

4 البعد الماركسي: الوعي الطبقي وتشبيء

لتقدير مساهمة غولدمان بالكامل، يجب أن نفهم كيف حول المفاهيم الماركسية الرئيسية من خلال عدسة البنيوية التكوينية. تأثر فكر غولدمان بعمق بالفيلسوف الماركسي المجري جورج لوكاتش، خاصة مفاهيم الكلية و التشبيء. بالنسبة لوكاتش، يشير التشبيء إلى العملية التي تأتي من خلالها العلاقات البشرية لتُدرَك كأشياء شبيهة بالأشياء تحت الرأسمالية، وهي ظاهرة حللها ماركس كـ "تقديس السلعة". دمج غولدمان هذا المفهوم لكنه أعطى تفسيراً بنيوياً تكوينياً مميزاً، معتبراً التشبيء ليس مجرد ظاهرة اقتصادية بل بناءً شاملاً للوعي يؤثر على جميع جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية.

يمثل نهج غولدمان للوعي الطبقي انحرافاً كبيراً عن الماركسية الأرثوذكسية. بينما اعترف بأهمية الموقع الطبقي في تشكيل رؤية العالم، رفض الحتمية الاقتصادية، مجادلاً بدلاً من ذلك عما أسماه "تماثل الهيكل" بين الهياكل العقلية للمجموعة الاجتماعية وإنتاجاتها الثقافية. وسمح مفهوم تماثل الهياكل هذا لغولدمان بتحليل كيف تعبر الأعمال الأدبية، الأنظمة الفلسفية، والحركات الفنية عن رؤى العالم لمجموعات اجتماعية معينة، دون اختزالها إلى مجرد انعكاسات للمصالح الاقتصادية. في عمله الأساسي الإله الخفي (1955)، أظهر غولدمان هذا النهج من خلال تحليل الرؤية التراجيدية في خواطر باسكال وتراجيديات راسين، موضحاً كيف عبرتا عن رؤية العالم للنبلاء الفرنسيين في القرن السابع عشر كمجموعة اجتماعية واقعة بين مواقع اجتماعية متناقضة. ربما كان انحراف غولدمان الأكثر أهمية عن الماركسية الكلاسيكية هو رفضه اللاحق للبروليتاريا كعامل حتمي للتحول الثوري. بملاحظة اندماج الطبقة العاملة في المجتمع الرأسمالي من خلال الأحزاب السياسية والنقابات العمالية، جادل غولدمان بأن "ثورة بروليتارية بحتة لم تحدث أبداً". بدلاً من ذلك، رأى الأمل في التحول الاجتماعي فيما سماه "الحركات الاجتماعية الجديدة" التي ظهرت في الستينيات—احتجاجات الطلاب، وحركات الأقليات العرقية والإثنية، وتطرف التقنيين والمتقنين. عكس هذا التحول قناعته البنيوية التكوينية بأن الوعي الاجتماعي يتطور من خلال الممارسة وأن مواضيع فائقة للفرد جديدة يمكن أن تنشأ من ظروف تاريخية متغيرة.

يوضح التطور السياسي لغولدمان مرونة البنيوية التكوينية كروية عالمية. من خلال التعامل مع الهياكل على أنها ديناميكية وليس ثابتة، استطاع أن يحسب لتحول الوعي الطبقي دون التخلي عن التحليل البنيوي

العلاقات الاجتماعية. سمحت هذه المرونة له بتحليل احتجاجات 1968 ليس كانهراف عن النظرية الماركسية بل كدليل على هياكل جديدة للوعي تنشأ استجابة لظروف مادية وثقافية متغيرة. في هذا الصدد، تقدم البنيوية التكوينية إطاراً لفهم التغيير الاجتماعي يتجنب كل من جمود الحتمية الاقتصادية وإرادية النهج الوجودية.

5 مساهمة بياجيه: البنيوية التكوينية للتطور المعرفي

بينما كان غولدمان يطور نسخته السوسولوجية من البنيوية التكوينية، كان عالم النفس السويسري جان بياجيه (1896-1980) يطور بشكل مستقل نهجاً موازياً لفهم التطور المعرفي. ركزت البنيوية التكوينية لبياجيه، التي فضل تسميتها "البنائية"، على كيفية تطور الفئات الأساسية للفكر—العدد، الزمن، المكان، السببية—من خلال تفاعل الطفل مع البيئة. بالنسبة لبياجيه، كما لغولدمان، لم تكن الهياكل فطرية أو محددة مسبقاً بل نشأت من خلال عملية بناء. كما صرح بياجيه نفسه، "لا يوجد هيكل بدون بناء، مجرد أو تكويني". أظهر بحث بياجيه أن التطور المعرفي يتقدم عبر سلسلة من المراحل، يتميز كل منها بهياكل منطقية مميزة. في عمله على تطور الكمية عند الأطفال، الذي أجراه مع باربل إنهيلدر، أظهر بياجيه أن حفظ الكميات الفيزيائية (فهم أن الكمية تظل كما هي رغم تغيرات المظهر) ينتج عن بناء هياكل منطقية أثناء التطور. وبالمثل، في نشأة العدد عند الطفل، الذي كتبه مع ألينا سيزمينسكا، أظهر بياجيه أن مفهوم العدد ينشأ من تركيب عمليتين أكثر أساسية: التصنيف والتسلسل. دعمت هذه النتائج أطروحته الأوسع بأن الهياكل المعرفية تُبنى من خلال انخراط الطفل النشط مع العالم، بدلاً من أن تمتص ببساطة من البيئة أو تتضج وفقاً لجدول زمني بيولوجي.

الاتصال بين نسختي بياجيه وغولدمان من البنيوية التكوينية هو أكثر من مجرد مصطلحات. كلاهما يشارك التزاماً بفهم كيف تنشأ الهياكل من خلال النشاط وليس من خلال كونها مُعطاة مسبقاً. كلاهما يؤكد على الطبيعة الديناميكية البناءة للتكوين الهيكلي. وكلاهما يرفض المفاهيم الثابتة أو المحددة مسبقاً للهيكلي لصالح منظور تطوري. كما تلاحظ إحدى المصادر، يفتح عمل بياجيه "الفترة المعروفة باسم 'البنيوية التكوينية'، حيث تُدرس الفئات الأساسية للفكر". بينما ركز بياجيه على التطور المعرفي الفردي وغولدمان على الوعي الاجتماعي الجماعي، يكمل نهجهما بعضهما البعض ضمن رؤية البنيوية التكوينية العالمية الأوسع، مقدماً رؤى حول كيفية عمل الهياكل على المستويين النفسي والسوسولوجي.

يشير هذا التقارب بين علم النفس التنموي والنظرية الاجتماعية إلى إحدى نقاط القوة المميزة للبنوية التكوينية كروية عالمية: قدرتها على سد الفجوة بين الوعي الفردي والجماعي. من خلال إظهار كيف تنشأ الهياكل من خلال التفاعل—سواء بين الطفل والبيئة أو بين المجموعة الاجتماعية والظروف التاريخية—توفر البنوية التكوينية إطاراً لفهم العلاقة الجدلية بين الفاعلية والهيكل التي تتجنب كل من الفردية المنهجية والحتمية البنوية.

6 التطبيق في التحليل الأدبي: رؤى عالمية في الإنتاج الثقافي

كان أحد أكثر التطبيقات ثراءً للبنوية التكوينية في مجال التحليل الأدبي والثقافي. رائد غولدمان نفسه هذا النهج في دراسته لباسكال، راسين، والرواية الحديثة، لكن منهجيته امتدت من قبل العديد من الباحثين لتحليل نصوص ثقافية متنوعة. الفرضية الأساسية للنقد الأدبي البنيوي التكويني هي أن الأعمال الأدبية المهمة تعبر بشكل متماسك عن رؤية العالم لمجموعة اجتماعية معينة. كما تشرح إحدى المصادر، تنظر البنوية التكوينية إلى "الأعمال الأدبية كمرآة تعكس السياق الاجتماعي ورؤية العالم لمؤلفيها" وتفحص "الميل البشري الفطري نحو الدلالة، الاتساق، والتجاوز" كما يتم التعبير عنه من خلال موضوعات فردية وجماعية. يمكن رؤية تطبيق معاصر لهذا النهج في دراسة تحلل عدم المساواة الطبقيّة في كتاب إدريس شاه المصور الرجل الغني والقرود من منظور غولدمان. تظهر الدراسة كيف تمثل الشخصيات الطبقات الاجتماعية رمزياً: يمثل القرود الطبقة المضطهدة بينما يمثل الرجل الغني النخبة. يكشف التحليل أن "التغيير المادي وحده لا يضمن التقدم الأيديولوجي" وأنه "بدون تحول في الوعي الجماعي، بدلاً من محو عدم المساواة، فإن الحراك الطبقي يرسخ النظام الهرمي القائم". يظهر هذا التطبيق كيف يمكن للبنوية التكوينية أن تكشف عن الهياكل الأيديولوجية المضمنة في سرديات تبدو بسيطة وتكشف عن علاقتها بالتناقضات الاجتماعية الأوسع. يتضمن منهج التحليل الأدبي البنيوي التكويني عادة عدة خطوات. أولاً، يحدد المحلل الهيكل الداخلي للعمل الأدبي—مواضيعه، علاقات شخصياته، أنماطه السردية، وأنظمته الرمزية. ثانياً، يسعى المحلل لربط هذا الهيكل الداخلي بالهياكل العقلية لمجموعة اجتماعية، بحثاً عما سماه غولدمان "تماثلات الهيكل". ثالثاً، يضع المحلل كل من العمل الأدبي والمجموعة الاجتماعية في سياقهم التاريخي، ويفحص كيف ينشأون من

ويستجيبون لظروف مادية محددة. أخيراً، يفكر المحلل في كيف قد يساهم العمل الأدبي في تحول أو إعادة إنتاج الوعي الاجتماعي.

تم تطبيق هذا النهج على أعمال أدبية متنوعة عبر سياقات ثقافية مختلفة. على سبيل المثال، استخدمت دراسات البنيوية التكوينية لتحليل استمرار القيم الثقافية المينانغكاباوية في الروايات الإندونيسية، والنقد الاجتماعي في تشارلز ديكنز قصة مدينتين، والاهتمامات الإنسانية في القصة العربية المعاصرة. ما يوحد هذه التطبيقات المتنوعة هو التزامها بفهم الأعمال الأدبية ليس كأشياء جمالية مستقلة أو كانعكاسات بسيطة للواقع الاجتماعي، بل كوساطات معقدة بين الإبداع الفردي والوعي الجماعي. من خلال فحص كيف تعبر الأشكال الأدبية عن وتشكل رؤى العالم، يقدم النقد البنيوي التكويني رؤى حول دور الإنتاج الثقافي في إعادة إنتاج وتحدي الهياكل الاجتماعية.

7 الخاتمة: البنيوية التكوينية كروية عالمية شاملة

كما رأينا طوال هذه المحاضرة، تقدم البنيوية التكوينية أكثر بكثير من نهج منهجي للتحليل الأدبي أو البحث الاجتماعي. إنها تشكل رؤية عالمية شاملة—طريقة لفهم الواقع البشري تؤكد على طبيعته الديناميكية، المنظمة، والمتطورة تاريخياً. من خلال تركيب رؤى من الجدلية الماركسية، وعلم النفس التنموي، واللسانيات البنيوية، توفر البنيوية التكوينية إطاراً لتحليل العلاقة المعقدة بين الوعي والواقع الاجتماعي دون الاستسلام لأي من الحتمية الميكانيكية أو المثالية الذاتية.

تكمن الأهمية الدائمة للبنيوية التكوينية في قدرتها على معالجة ما يمكن تسميته المفارقة المركزية للوجود الاجتماعي البشري: أننا نشكل من خلال هياكل لم نختارها، لكن من خلال ممارستنا الجماعية يمكننا تحويل تلك الهياكل نفسها. يقدم مفهوم غولدمان "الموضوع فائق الفرد" طريقاً يتجاوز التعارض العقيم بين الفردية والجماعية، موضحاً كيف تنشأ الفاعلية ذات المعنى من رؤى عالمية مشتركة بدلاً من وعي معزول. يكمل بحث بياجيه هذه البصيرة السوسولوجية من خلال إظهار كيف تتطور الهياكل المعرفية نفسها من خلال التفاعل مع البيئة، مما يشير إلى أن قدرة التحول الهيكلية متجذرة في تركيبنا المعرفي الأساسي.

كروية عالمية، تذكرنا البنيوية التكوينية بأن الواقع البشري دائماً في عملية—ما سماه غولدمان "البناء والهدم". الهياكل التي تشكل وعينا وعلاقاتنا الاجتماعية ليست حقائق أبدية بل تشكيلات تاريخية نشأت من

خلال الممارسة البشرية ويمكن تحويلها من خلال الممارسة المستقبلية. يحمل هذا المنظور آثاراً تحليلية وأخلاقية. تحليلياً، يوجه انتباهنا إلى التفاعل الديناميكي بين الاستقرار والتغيير في الحياة الاجتماعية والثقافية. أخلاقياً، يؤكد على مسؤوليتنا عن الهياكل التي نسكنها وإمكانيتنا للمشاركة في تحولها نحو تعبيرات أكثر كفاية للإمكانية البشرية.

في مشهد فكري غالباً ما يتجزأ بسبب الحدود التخصصية وينقسم بين الحتمية البنيوية والنسبية ما بعد الحداثية، تقدم البنيوية التكوينية رؤية تركيبية تعترف بكل من قيود الهيكل وإمكانات الفاعلية. توفر إطاراً لفهم كيف تنشأ رؤى العالم، وتتطور، وتجد تعبيراً في الإنتاجات الثقافية. وتذكرنا أن البحث عن المعنى—سواء كان فردياً أو جماعياً—ليس مجرداً أبداً بل دائماً مضمن في الظروف التاريخية الملموسة للممارسة البشرية. على هذا النحو، تواصل أسس البنيوية التكوينية تقديم موارد قيمة لفهم عالمنا وتخيل كيف يمكن بناؤه بشكل مختلف.

ملخص المحاضرة:

تلخيص محاضرة: أسس البنيوية التكوينية - رؤية عالمية

(1) المقدمة: ما هي البنيوية التكوينية؟

اليوم سنتحدث عن البنيوية التكوينية، لكن ليس كنظرية مجردة، بل كرؤية عالمية شاملة لفهم حياتنا الاجتماعية والثقافية. تخيل أنك تحاول فهم لماذا نفكر كما نفكر، أو لماذا يتغير المجتمع؟ البنيوية التكوينية تجيب بأن الواقع البشري ليس ثابتاً، بل هو عملية ديناميكية من البناء وإعادة البناء المستمر، حيث يتشكل وعينا الفردي والجماعي من خلال تفاعلنا مع الهياكل الاجتماعية (أنظمة علاقات تتكون وتتغير من خلال الممارسات والأفعال اليومية للأفراد والجماعات، في عملية جدلية مستمرة بين الفعل البشري والبناء الاجتماعي) المحيطة بنا (مثل العائلة، الطبقة، الثقافة)، وفي الوقت نفسه، نحن نُغيّر تلك الهياكل من خلال أفعالنا اليومية. ظهرت هذه الرؤية في منتصف القرن العشرين كـ توليف أو تركيب بين نظريتين كبيرتين:

البنيوية الكلاسيكية: التي تركز على الهياكل الثابتة والمجردة (مثل قواعد اللغة).

المادية التاريخية (الماركسية): التي تركز على الصراع الطبقي والتاريخ الحتمي (التاريخ يسير حتماً عبر

مراحل اقتصادية محددة، يقودها صراع الطبقات، نحو الشيوعية).

البنوية التكوينية أخذت من الأولى فكرة النظام والعلاقات، ومن الثانية فكرة الصراع والتاريخ، وخلطتهما بفكرة النشاط البشري البناء.

أبرز من طور هذه الرؤية هما:

1. لوسيان غولدمان (عالم الاجتماع): ركز على الوعي الاجتماعي الجماعي.

2. جان بياجيه (عالم النفس): ركز على تطور البنى المعرفية عند الطفل.

سنركز في رحلتنا على: الأسس الفلسفية، تركيب غولدمان، مساهمة بياجيه، التطبيق على الأدب، ثم النقد والأهمية المستمرة.

(2) الأسس الفلسفية: من البنية الجامدة إلى البنية الحية

لفهم البنية التكوينية، نرجع للبنوية التقليدية. الفكرة المركزية للبنوية: المعنى لا يأتي من الأشياء بحد ذاتها، بل من علاقاتها داخل نظام. مثل كلمة "أب" لا معنى لها إلا بوجود علاقتها بـ "ابن" أو "أم". هذه الفكرة أتت بها فرديناند دي سوسير في اللغة، وطبقها كلود ليفي شتراوس على الأساطير والقراءة.

لكن مشكلة البنية التقليدية أنها ترى الهياكل ثابتة، عالمية، وخالدة، وكأنها قوانين فيزيائية. هذا يهمل التاريخ، التغيير، ودور الفاعل البشري.

البنوية التكوينية حوّلت الهيكل من شيء جامد إلى عملية حية، تُبنى وتتهدم عبر تاريخ النشاط البشري الجماعي.

(3) لوسيان غولدمان: رؤية العالم المشتركة والموضوع الفائق

يستخدم لوكاش مفهوم الكلية كمعيار حاسم للتمييز بين رؤيتين متناقضتين للعالم، تعكسان موقعين طبقين متعارضين:

1. - الرؤية البرجوازية للعالم

تتبع من موقع الطبقة البرجوازية (أصحاب رأس المال) المسيطر. وهي رؤية جزئية ومشوهة، تميل إلى تجزئة المجتمع وتعتبر كل مجال منعزلاً بذاته. الأهم من ذلك، أنها تقدم قوانين الرأسمالية (مثل قوانين السوق والمنافسة) على أنها قوانين طبيعية وأبدية، أشبه بقوانين الفيزياء، وليست منتجات بشرية تاريخية وقابلة

للتغيير. هذا التشويه أو "الوعي الزائف" يخدم بشكل غير مباشر في تثبيت النظام القائم، لأنه يجعل النظام الاجتماعي القائم يبدو وكأنه النظام الوحيد الممكن والأبدي.

2. الرؤية البروليتارية للعالم

وهي، بالنسبة للوكاش، الرؤية العلمية والثورية الحقيقية. وبسبب موقع البروليتاريا (الطبقة العاملة) داخل عملية الإنتاج الرأسمالي كمصدر للعمل والسلعة الأساسية، فهي لديها الإمكانيات الموضوعية لامتلاك الرؤية الكلية. فهي تستطيع أن تدرك أن المجتمع هو كل متكامل، وأن علاقات الاستغلال ليست قدرًا محتومًا بل هي بناء تاريخي أنتجته الطبقات المسيطرة. هذا الوعي ليس انعكاسًا سلبيًا للواقع، بل هو "وعي بالذات" يُمكن الطبقة العاملة من التحول من مجرد ضحية أو "موضوع" للتاريخ إلى فاعل تاريخي قادر على تغيير الكل الاجتماعي عبر الممارسة الثورية.

طور غولدمان رؤيته بدمج ماركسية جورج لوكاتش مع بنوية بياجيه. فكرته المركزية: المجموعات الاجتماعية (مثل طبقة، جماعة مهنية) تنتج عبر تجربتها المشتركة "رؤية عالمية" متماسكة، وهي هيكل عقلي وجداني جماعي يفسر العالم ويوجه الفعل.

هذه الرؤية العالمية ليست مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي، ولا هي إبداع فردي عبثي، إنها: هيكل ذهني يتشاركه أفراد المجموعة، وهو وسيط بين الوعي الفردي والواقع الاجتماعي الموضوعي.

كيف ندرسها؟ يقترح غولدمان منهجاً ذا شقين:

1. **تزامني:** تحليل البنية الداخلية المتماسكة ل عمل ثقافي (رواية، فلسفة).

2. **تتابعي (تاريخي):** ربط هذه البنية ببنية رؤية العالم للمجموعة الاجتماعية، ودراسة تطورها معاً عبر التاريخ.

مثال تطبيقه: في كتابه "الإله الخفي"، حلل تراجيديات راسين وفلسفة باسكال، وبين كيف عبّرتا عن الرؤية التراجيدية للنبلاء الفرنسيين في القرن 17، الذين كانوا عالقين بين النظام الملكي القديم والطبقة الصاعدة.

(4) البعد الماركسي المعدل: المرونة والتغيير

أخذ غولدمان من الماركسية مفهومي "التشبيء" (تحول العلاقات البشرية إلى أشياء مجردة) و"الوعي الطبقي"، لكنه عدّهما بروح بنوية تكوينية:

رفض الحتمية الاقتصادية الصارمة. العلاقة بين الاقتصاد والثقافة هي "تماثل في البنية"، وليست انعكاساً ألياً.

رفض فكرة أن البروليتاريا (الطبقة العاملة المُستَغَلَّة في النظام الرأسمالي، والتي يرى ماركس أنها ستحرر نفسها وتحرر المجتمع ككل) هي العامل الثوري الوحيد حتماً. رأى أن "مواضيع فائقة" جديدة يمكن أن تنشأ من مجموعات أخرى (كطلاب 1968، الحركات الاجتماعية الجديدة).

هنا المرونة: البنيوية التكوينية تفسر كيف يتغير الوعي مع تغير الظروف، دون التخلي عن التحليل البنيوي للعلاقات.

(5) جان بياجيه:

بشكل موازٍ، كان جان بياجيه يدرس كيف يبني الطفل معرفته. بالنسبة له، الهياكل العقلية (مفاهيم العدد، الزمن، السببية) لا تولد معنا جاهزة، ولا يستقبلها الطفل سلبياً من البيئة. بل تُبنى بنشاط من خلال تفاعل الطفل مع العالم.

التطور المعرفي عبارة عن مراحل، كل مرحلة تتميز بهيكل عقلي جديد وأكثر تعقيداً، يبني على أنقاض السابق. المهم هنا هو فكرة البناء النشط، التي تتطابق مع فكرة غولدمان عن بناء الهياكل الاجتماعية عبر الممارسة الجماعية.

الرابط العميق: يقدم بياجيه الأساس النفسي-التنموي لفكرة أن الهياكل تُبنى، بينما يقدم غولدمان التطبيق الاجتماعي-الثقافي لها. معاً، يقدمان رؤية مكتملة تربط الفرد بالمجتمع.

تمثل البنيوية التكوينية واحدة من أكثر المحاولات تطوراً في نظرية النقد خلال القرن العشرين، والتي سعت إلى التوفيق بين المقتضيات التي تبدو متناقضة للتحليل البنيوي والدينامية التاريخية. طورها بشكل أساسي الفيلسوف وعالم الاجتماع الروماني الفرنسي لوسيان غولدمان (1913-1970)، حيث نشأ هذا الإطار النظري استجابة لما اعتبره غولدمان قيوداً كبيرة داخل كل من الماركسية الكلاسيكية والبنيوية التقليدية. في جوهرها، تفترض البنيوية التكوينية أن الإبداعات الثقافية - وخاصة الأعمال الأدبية - ليست مجرد انعكاسات للظروف الاجتماعية، بل هي هياكل ذات دلالة تتبثق جدلياً من العلاقة بين الوعي الإنساني والسياق التاريخي. ستستكشف هذه المحاضرة المبادئ الأساسية للبنيوية التكوينية مع التركيز بشكل خاص على نظريتها حول البنية الدلالية، متتبعاً نسقها الفلسفي، موضحة مفاهيمها الرئيسية، ومقيمة إسهامها الدائم في النظرية الأدبية والاجتماعية.

نشأ نهج غولدمان من عدم رضاه عما رآه كالميل الاختزالي في كل من الماركسية الحتمية والبنيوية اللاتاريخية. فبينما اعترف بالرؤى العميقة لماركس، سعى غولدمان إلى تأسيس أساس معرفي مختلف لفهم الظواهر الثقافية، أساس يتجنب الحتمية الاقتصادية مع الحفاظ على الوعي التاريخي للماركسية. في الوقت نفسه، أدرك قيمة النهج المنهجي للبنيوية في تحليل الأشكال الثقافية، لكنه رفض ميلها إلى معاملة الهياكل ككيانات ثابتة ولا تاريخية منفصلة عن الفعل الإنساني. وضعت هذه النقد المزدوج البنيوية التكوينية كنظرية وسيطة، اعتقد غولدمان أنها تستطيع تفسير كل من التماسك المنهجي للأعمال الثقافية ونشأتها التاريخية. تمتد أهمية البنيوية التكوينية إلى ما هو أبعد من نظرية الأدب لتشمل أسئلة أوسع حول المعرفة الإنسانية والواقع الاجتماعي. كما لوحظ في التحليلات العلمية، يمثل إطار غولدمان "حقلًا جدليًا" يجمع بين "النظرية الاجتماعية لدى لوكاتش والنظرية النفسية لدى بياجيه"، مع الاستفادة أيضاً من إرث مفكرين مثل "هيغل وفرويد، نينشه، إلخ". يسمح هذا التركيب النظري الانتقائي للبنيوية التكوينية بمعالجة ما رآه غولدمان السؤال الأساسي للعلوم الإنسانية: كيف يخلق البشر عوالم ذات معنى من خلال النشاط الجماعي، وكيف تعكس هذه الإبداعات الظروف الاجتماعية التي تتبثق عنها وتحولها في نفس الوقت؟ تكمن الإجابة على هذا

السؤال، كما سنرى، في فهم غولدمان المميز للبنية الدلالية - وهو مفهوم يربط الفجوة بين الإبداع الفردي والوعي الجمعي، وبين التحليل النصي والنظرية الاجتماعية.

2. الأسس النظرية والنسب الفلسفي

تمثل البنيوية التكوينية تركيباً مذهباً لتقاليد فكرية متنوعة، ساهم كل منها بعناصر أساسية في بنيتها النظرية. لفهم مساهمة غولدمان الفريدة، يجب تتبع السلالات الفلسفية التي نسجها معاً في إطار متماسك لتحليل الظواهر الثقافية. يكشف هذا النسب الفكري عن البنيوية التكوينية ليس كقطيعة جذرية عن النظريات السابقة، بل كنظير متطور لأكثر رؤاها قيمة مع معالجة قيودها.

يظهر التأثير الهيجلي على البنيوية التكوينية بشكل واضح في التزام غولدمان بالمنطق الجدلي وفهمه للهيكل كعناصر داخل كليات أكبر. من هيجل، يرث غولدمان القناعة بأن الواقع يجب فهمه ككل ديناميكي متطور وليس كمجموعة من الحقائق المعزولة. ومع ذلك، على عكس التوجه المثالي لهيجل، فإن كليات غولدمان هي دائماً نسبية وموقعة تاريخياً - وهو تعديل اقتبسه من التقليد الماركسي. يسمح مفهوم "الكلية النسبية" هذا لغولدمان بتحليل الأعمال الأدبية ككليات ذات معنى تنتمي في نفس الوقت إلى كليات اجتماعية وتاريخية أكبر، حيث يكشف كل مستوى من التحليل عن جوانب مختلفة من المعنى.

من ماركس، يتبنى غولدمان الفرضية الأساسية بأن الوعي الإنساني يتشكل من الوجود الاجتماعي، لكنه يعدل النظرية الماركسية الكلاسيكية بشكل كبير في عدة جوانب حاسمة. كما لوحظ في التحليلات العلمية، رفض غولدمان "التفسيرات الحتمية البحتة للمجتمع" التي ربطها بالماركسية التقليدية. بدلاً من ذلك، طور فهماً أكثر دقة للعلاقة بين البنية الفوقية والتحتية، فهماً منح الأشكال الثقافية درجة كبيرة من الاستقلالية مع الاعتراف بنشأتها الاجتماعية النهائية. ربما الأهم من ذلك، وسع غولدمان مفهوم ماركس عن الوعي الطبقي ليشمل أشكالاً مختلفة من الوعي الجمعي التي قد تنشأ داخل مجموعات اجتماعية مختلفة، وليس فقط الطبقات الاقتصادية. مكنته هذه الخطوة النظرية من تحليل الإنتاجات الثقافية كتعبيرات عما أسماه "الذوات عبر الفردية" - هياكل عقلية جمعية تتجاوز علم النفس الفردي.

يمثل تأثير جان بياجيه أحد أكثر الابتكارات النظرية تميزاً عند غولدمان. من نظرية المعرفة التكوينية لبياجيه، يفترض غولدمان مفهوم الهياكل المعرفية ككيانات تتطور من خلال عمليات الاستيعاب والتكيف،

مطبّقاً هذا الإطار التطوري على الظواهر الاجتماعية والثقافية. يسمح هذا البعد النفسي للبنىوية التكوينية بتفسير كل من نشأة وتحول الهياكل العقلية، معالجا ما رآه غولدمان عجز البنىوية عن تفسير التغيير التاريخي. كما تلاحظ إحدى التحليلات، جمع غولدمان بين "الفئات التحليلية الكبرى" من لوكاتش و"فئات أنثروبولوجية وإيجابية مستمدة من بياجيه (مثل البنية ذات الدلالة، الوظيفة، عملية البناء والهدم، الحلقة المعرفية للموضوع ، والموضوع والتوازن)". يسمح هذا التركيب للبنىوية التكوينية بتحليل الأعمال الثقافية ليس كأشياء ثابتة ولكن كحظيات داخل عمليات مستمرة من التشكيل والتحول الهيكلين.

أخيراً، تأثير جورج لوكاتش مهم بشكل خاص لنظرية غولدمان الأدبية. من لوكاتش، يتبنى غولدمان مفهوم "النظرة للعالم" كفئة وسيطة بين الواقع الاجتماعي والشكل الفني، بالإضافة إلى فكرة "الوعي الممكن" - أقصى وعي يمكن لمجموعة اجتماعية أن تحققه في وضعها التاريخي. ومع ذلك، يبتعد غولدمان عن معلمه بطرق مهمة، مطوراً منهجية أكثر نظامية لتحديد النظرات للعالم في النصوص الأدبية وربطها بمجموعات اجتماعية محددة. يظهر هذا الأساس اللوكاتشي بوضوح في تحفة غولدمان، الإله الخفي، حيث يحلل الرؤية المساوية في كتابات باسكال وراسين كتعبير عن نظرة عالم "تبلأ الرداء" في فرنسا القرن السابع عشر.

3. المفاهيم الأساسية والإطار النظري

يتمحور الهيكل المفاهيمي للبنىوية التكوينية حول عدة مفاهيم مترابطة تشكل معاً نهجها المميز في التحليل الثقافي. في قلب هذا الإطار يوجد مفهوم البنية ذات الدلالة - وهو مصطلح يجمع بين التزام غولدمان بالتحليل المنهجي وإصراره على النشأة التاريخية. فهم هذه المفاهيم الأساسية ضروري لفهم كيفية عمل البنىوية التكوينية كنظرية أدبية وكمقاربة سوسولوجية.

3.1 الهياكل ذات الدلالة والذات عبر الفردية

بالنسبة لغولدمان، تمثل الهياكل ذات الدلالة الوحدات الأساسية للتحليل الثقافي. هذه ليست أنماطاً شكلية عشوائية، بل أنظمة متماسكة من الفئات العقلية والقيم والعلاقات التي تعكس وتنظم التجربة الإنسانية للعالم. كما ورد في الأدبيات العلمية، ترى البنىوية التكوينية أن الإبداع الأدبي يحتوي على "هيكل ذي دلالة" يكون "على علاقة جدلية مع الهيكل العقلي لهذا الفاعل المتعالي، والذي بدوره في علاقة جدلية مع الهيكل

السياسي والاجتماعي والاقتصادي". تشكل هذه العلاقة الثلاثية - بين البنية النصية، والبنية العقلية، والبنية الاجتماعية - النواة التحليلية للبنىوية التكوينية.

ما يميز نهج غولدمان عن البنىويات الأخرى هو إصراره على أن هذه الهياكل ذات الدلالة ليست أبداً إبداعات فردية بحتة، بل هي تعبيرات عن ذوات عبر فردية. يمثل هذا المفهوم الحاسم حل غولدمان للإشكالية في العلاقة بين الفعل الفردي والتحديد البنيوي. الذات عبر الفردية ليست الفرد المعزول للإنسانية الليبرالية، ولا المجموعة المجردة لبعض النظريات الماركسية، بل هي "فاعل متعالٍ" ينشأ عندما يطور الأفراد داخل مجموعة اجتماعية هياكل عقلية مشتركة من خلال انخراطهم الجمعي مع العالم. كما تشرح إحدى التحليلات، "إذا كان أعضاء المجموعة يتشاركون التجربة الفكرية والعاطفية للعالم وإذا تحققت وحدتهم، فيمكن عندها اعتبار تلك المجموعة 'ذاتاً عبر فردية'".

يتيح هذا المفهوم للبنىوية التكوينية تحليل الأعمال الثقافية كتعبيرات عن الوعي الجمعي مع الاعتراف بدور الإبداع الفردي. يصبح مؤلف النص الأدبي، في صياغة غولدمان، "الفاعل المتعالٍ" الذي يعطي تعبيراً متماسكاً ومتطوراً بشكل خاص عن نظرة عالم مجموعته الاجتماعية. وبالتالي يمثل العمل الأدبي ما يسميه غولدمان الوعي الممكن الأقصى لتلك المجموعة - أكثر تعبير كامل ومتماسك عن فهمها للعالم في ضوء وضعها التاريخي. يسمح هذا النهج للبنىوية التكوينية بتجنب كل من الاختزالية السيرية لبعض النقد التقليدي ونزعات محو المؤلف لبعض نظريات البنىوية وما بعد البنىوية.

3.2 جدلية البناء والهدم

مفهوم أساسي آخر في البنىوية التكوينية هو فهم الهياكل ككيانات ديناميكية بطبيعتها، توجد في حالة دائمة من البناء والهدم. بالاستناد إلى نظرية المعرفة التكوينية لبياجيه، يرى غولدمان الهياكل العقلية ليس ككيانات ثابتة ولكن كتكوينات تتطور من خلال النشاط الإنساني والتغيير التاريخي. كما تلاحظ إحدى التحليلات، اعتقد غولدمان أن "الهياكل العقلية تنشأ وتتغير باستمرار من خلال النشاط البشري، أي من خلال ممارسة مجموعة اجتماعية محدودة". يمثل هذا المنظور التطوري انزياحاً حاسماً عن ميل البنىوية التقليدية لتحليل الهياكل تزامنياً - كنظم ثابتة موجودة خارج الزمن.

تعمل جدلية البناء والهدم على مستويات متعددة داخل البنيوية التكوينية. على مستوى الإدراك الفردي، تصف كيف يتكيف البشر باستمرار مع هياكلهم العقلية لتجارب جديدة من خلال عمليات الاستيعاب والتكيف. على المستوى الاجتماعي، تفسر التحول التاريخي للنظرات الجمعية للعالم حيث تستجيب المجموعات الاجتماعية لتغير الظروف المادية والتحديات التاريخية. على مستوى الإنتاج الثقافي، تفسر كيف تتطور الأشكال الأدبية بينما يسعى المؤلفون لإعطاء تعبير عن النظرات للعالم الناشئة أو المتحولة. يتيح هذا المنظور التطوري متعدد المستويات للبنيوية التكوينية تفسير كل من التماسك المنهجي للأعمال الثقافية وخصوصيتها التاريخية - وهو تحدي نظري كان يؤرق المقاربات السابقة في سوسيولوجيا الأدب. يطور غولدمان هذا المنظور التطوري بشكل أكبر من خلال تمييزه بين التحليل التزامني والتعاقبي. في المنظور التزامني، يركز التحليل على التماسك الداخلي والتوازن للهيكل في لحظة تاريخية معينة. كما تشرح إحدى المصادر، "في المنظور التزامني، الدينامية الداخلية للهيكل هي نتيجة للتناقضات الداخلية، لكنها أيضاً جزء من الهيكل الأوسع، الذي يشمل الأول ويسعى لتحقيق توازنه الخاص". في المقابل، يفحص المنظور التعاقبي العمليات التاريخية التي تتشكل وتتحول وتتفكك من خلالها الهياكل عبر الزمن. بالنسبة لغولدمان، كلا المنظورين ضروريان لفهم كامل للظواهر الثقافية، حيث يوفر التحليل التعاقبي البعد التكويني الذي يميز نهجه عن البنيويات غير التكوينية.

4. المنهجية والتطبيقات التحليلية

يمثل الإطار المنهجي للبنيوية التكوينية نهجاً منظماً لتفسير النصوص الثقافية في سياقاتها الاجتماعية والتاريخية. طور غولدمان إجراءً دقيقاً للانتقال بين التحليل النصي الدقيق والبحث السوسيولوجي الأوسع، مبتكراً ما أسماه منهج "التشابه البنيوي". يتيح هذا الابتكار المنهجي للباحثين إقامة روابط ذات معنى بين الأشكال الأدبية والهياكل الاجتماعية دون اختزال الأولى إلى مجرد انعكاسات للأخيرة.

4.1 منهج التشابه البنيوي

مركزي في منهجية غولدمان هو مفهوم التشابه البنيوي - ليس في المحتوى بل في البنية. على عكس المقاربات السوسيولوجية التقليدية التي قد تبحث عن تمثيلات مباشرة للواقع الاجتماعي في الأعمال الأدبية، تسعى البنيوية التكوينية إلى تحديد هياكل موازية للعلاقات بين العناصر. كما يشرح غولدمان في تحليله

لباسكال وراسين، ليست الأفكار أو الشخصيات المحددة هي التي تربط الأعمال الأدبية بالواقع الاجتماعي، بل هياكل التفكير والشعور الأساسية - الطرق التي تطرح فيها المشكلات، وتتفاوض فيها التناقضات، وتتظم فيها القيم. يتيح هذا التشابه البنيوي للبنوية التكوينية تفسير الاستقلالية النسبية للإنتاج الثقافي مع إثبات أهميته الاجتماعية.

تتطور العملية التحليلية في البنيوية التكوينية عادة عبر عدة مراحل متميزة:

1. التحليل الجوهرى للنص: يبدأ الباحث بقراءة متأنية للعمل الأدبي لتحديد هيكله الدلالي الداخلي - نظام القيم والتناقضات والعلاقات الذي يعطي العمل تماسكه. تتطلب هذه المرحلة اهتماماً دقيقاً بالعناصر الشكلية، والهياكل السردية، والأنماط الرمزية، والتوترات الفلسفية داخل النص.

2. تحديد النظرة للعالم: بناءً على هذا التحليل الجوهرى، يحاول الباحث إعادة بناء النظرة للعالم المتماسكة المعبر عنها في النص. يتضمن ذلك صياغة الرؤية الأساسية للوجود البشري، والمشكلات المركزية التي تعالجها، والقيم التي تؤكدتها أو تنفيها. كما تلاحظ إحدى المصادر، يضع نهج غولدمان "الأعمال الأدبية كنظم متعددة الطبقات للمعنى تعكس كلية الواقع الاجتماعى لمجموعة ما".

3. التسييق السوسيوولوجي: يحقق الباحث بعد ذلك في السياق التاريخي لتحديد المجموعات الاجتماعية التي قد يتوافق وعيها الجمعي مع النظرة للعالم المعبر عنها في النص. يتضمن ذلك فحص الموقع الاجتماعى، والظروف الاقتصادية، والتحديات التاريخية، والتكوينات الأيديولوجية لمجموعات مختلفة خلال فترة إنتاج النص.

4. إثبات التشابه البنيوي: تتضمن المرحلة الأخيرة إظهار تشابه بنيوي بين الهيكل الدلالي للنص والهيكل العقلي للمجموعة الاجتماعية المحددة. يتطلب ذلك إظهار ليس فقط تشابه المحتوى ولكن التوازي في العلاقات الهيكلية - كيف تُدار التناقضات، وتُرتب القيم هرمياً، وتُتصور الاحتمالات.

يمثل هذا الإجراء المنهجي حل غولدمان لما رآه الضعف الرئيسي في كل من النقد الأدبي التقليدي (الذي غالباً ما يتجاهل السياق الاجتماعى) والمقاربات السوسيوولوجية السطحية (التي تختزل النصوص إلى مواقف أيديولوجية). من خلال التركيز على التشابهات البنيوية بدلاً من المراسلات المباشرة، تهدف البنيوية التكوينية إلى الحفاظ على تعقيد وخصوصية الأعمال الثقافية مع وضعها في سياق ظروف إنتاجها.

6. الخاتمة:

بينما نختم هذا الفصل لأساسيات البنيوية التكوينية، تظهر عدة اتجاهات واعدة للبحث المستقبلي من الإطار النظري لغولدمان. أولاً، يستحق مفهومه عن الذات عبر الفردية إعادة النظر في ضوء نظريات الذكاء الجمعي، والإدراك الموزع، والذاتية الشبكية المعاصرة. تقدم الثقافة الرقمية بشكل خاص أشكالاً جديدة من الإبداع الجمعي والوعي المشترك التي يمكن تحليلها بشكل منتج من خلال عدسة بنيوية تكوينية مُحدّثة. كيف يمكن لفهم غولدمان للذوات الجمعية أن يساعدنا في فهم ظواهر مثل مجتمعات المصادر المفتوحة، وحركات وسائل التواصل الاجتماعي، أو الفن الرقمي التعاوني؟

ثانياً، يمكن تطبيق منهجية البنيوية التكوينية في التشابه البنيوي بشكل مثير على أشكال ثقافية معاصرة تعبر بشكل واضح عن الجسر بين التعبير الفردي والجمعي، مثل المسرح التشاركي، ومشاريع الفن المجتمعي، أو الإنتاج الثقافي الناشط. غالباً ما تتفاوض هذه الأشكال صراحةً حول العلاقة بين التجربة الشخصية والوعي الجمعي، مما يجعلها مناسبة بشكل خاص للتحليل البنيوي التكويني الذي تم تحديثه لمعالجة الاهتمامات النظرية المعاصرة حول الفعلية، والتنوع، والقوة.

ثالثاً، يقدم اهتمام غولدمان بالبعد التطوري للهياكل - نشأتها، وتحولها، وتفككها - منظوراً قيماً لتحليل التغيير الثقافي في عصر التحول التكنولوجي والاجتماعي السريع. قد تساعد البنيوية التكوينية المعاصرة في تسليط الضوء على كيفية توليد أشكال الإعلام الجديدة، والتدفقات الثقافية العالمية، والوعي البيئي لهياكل عقلية ونظرات عالم جديدة، وكيف يتم التعبير عن هذه من خلال أشكال ثقافية ناشئة.

أخيراً، يقدم التزام البنيوية التكوينية بفهم الأعمال الثقافية كهياكل متماسكة وتعبيرات تاريخية بديلاً بناءً للميول النظرية التي تعزل النصوص عن السياقات أو تختزلها إلى مواقف أيديولوجية. في مشهد أكاديمي غالباً ما ينقسم بين مقاربات شكلانية وتاريخانية، يقدم تركيب غولدمان مساراً نحو تحليلات أكثر تكاملاً تعترف بكل من النزاهة الجمالية للأعمال الثقافية وأهميتها الاجتماعية.

كما رأينا طوال هذه المحاضرة، تمثل البنيوية التكوينية لدى لوسيان غولدمان محاولة متطورة للتنقل في بعض من أكثر المعضلات استمراراً في النظرية الثقافية: بين البنية والتاريخ، بين الإبداع الفردي والتحديد الاجتماعي، بين التحليل النصي والفهم السياقي. بينما تتطلب جوانب معينة من إطاره مراجعة في ضوء

التطورات النظرية اللاحقة، تظل الرؤى الأساسية للبنوية التكوينية – وخاصة فهمها للأعمال الثقافية كهياكل ذات دلالة لها نشأة اجتماعية – تقدم موارد قيمة للبحث المعاصر. من خلال الحفاظ على حساسية غولدمان الجدلية مع معالجة الانتقادات المشروعة لنهجه، يمكن للباحثين اليوم تطوير منهجيات أكثر دقة لفهم كيف يخلق البشر عوالم ذات معنى من خلال الممارسة الثقافية، وكيف تعكس هذه الإبداعات وتحولها في نفس الوقت الظروف الاجتماعية لإمكانيتها.

المحاضرة 04: أسس البنيوية التكوينية: مفهوم القيمة

1. المقدمة:

نبدأ اليوم رحلة فكرية لاستكشاف أحد أكثر الأطر تعقيداً في النظرية الاجتماعية - البنيوية التكوينية - من خلال العدسة التحليلية لمفهومها المركزي: القيمة. عندما نتحدث عن "القيمة" في الخطاب اليومي، فإننا نشير عادة إلى القيمة الاقتصادية أو المبادئ الأخلاقية. ومع ذلك، في التقليد البنيوي، تكتسب القيمة أهمية أعمق بكثير بوصفها المبدأ العلائقي الذي يحكم المعنى داخل النظم الاجتماعية والرمزية. إنها تمثل ليس خاصية جوهرية، بل خاصية موضعية تحددها علاقة العنصر بالعناصر الأخرى داخل كل منظم.

لقد شغلت مسألة كيفية إنشاء المجتمعات لأنظمة القيمة والحفاظ عليها - لماذا الذهب ثمين، ولماذا ترتيبات قرابة معينة لها امتياز، ولماذا تدوقات ثقافية معينة لها تقدير - علماء الاجتماع لقرون. ما يميز النهج البنيوي هو إصراره على أن القيمة تنشأ ليس من الخصائص الجوهرية بل من الموضع داخل أنظمة الاختلاف. كما لخص الفيلسوف البنيوي سيمون بلاكبيرن، تمثل البنيوية "الاعتقاد بأن ظواهر الحياة البشرية لا يمكن فهمها إلا من خلال علاقاتها المتبادلة. تشكل هذه العلاقات بنية، وخلف الاختلافات المحلية في الظواهر السطحية توجد قوانين ثابتة للبنية المجردة".

ستتبع هذه المحاضرة تطور الفكر البنيوي من أصوله اللغوية إلى تطبيقاته الأنثروبولوجية، لتتوج بما نسميه "البنيوية التكوينية" - إطاراً ديناميكياً يدرس كيف تولد هياكل القيمة وتنتج وتحول الواقع الاجتماعي. سنستكشف كيف يتصور هذا التقليد القيمة ليس كسمة ثابتة بل كمبدأ توليدي يعمل عبر مجالات متعددة من التجربة البشرية.

2. الأسس النظرية: من البنيوية إلى البنيوية التكوينية

2.1 الثورة اللسانية: سوسير ونظرية المعنى العلائقية

تجد الثورة البنيوية في النظرية الاجتماعية جذورها في الابتكارات اللسانية لفرديناند دي سوسور في أوائل القرن العشرين في أوروبا. كانت فكرة سوسور الأساسية هي أن اللغة تشكل نظاماً من العلاقات وليست مجرد مجموعة من العناصر ذات المعنى المستقل. اقترح ثلاثة مفاهيم مترابطة أصبحت أساسية للبنيوية:

1. اللغة مقابل الكلام : ميز سوسور بين اللغة (النظام المجرد للغة) والكلام (أفعال الكلام الفعلية). يتعلق التحليل البنيوي في المقام الأول ب اللغة - النظام الكامن الذي يجعل الكلام الفردي ممكنًا.
2. الطبيعة الاعباطية للعلامة : تجمع العلامة اللسانية بين الدال (النمط الصوتي أو الشكل الكتابي) والمدلول (المفهوم). بشكل نقدي، جادل سوسور بأن هذه العلاقة اعباطية - لا يوجد سبب طبيعي يجعل التسلسل الصوتي "شجرة" يدل على مفهوم النبات الخشبي الطويل. ينشأ المعنى ليس من الإشارة إلى الواقع الخارجي بل من التفاضل الداخلي داخل النظام اللغوي.
3. القيمة عبر الاختلاف: كان اقتراح سوسور الأكثر راديكالية هو أن "في اللغة، لا يوجد سوى اختلافات بدون مصطلحات إيجابية". تستمد قيمة المصطلح ليس مما تحويه بل مما يحيط بها - موضعها داخل شبكة من التباينات. تعتمد قيمة "ساخن" على تقابلها مع "بارد"؛ تنشأ قيمة "نهار" في تباينها مع "ليل".
قدم هذا النموذج اللساني لعلماء الاجتماع تشبيهاً قوياً: إذا كان المعنى في اللغة علائقياً ومنهجياً، ألا يمكن أن تعمل الظواهر الثقافية الأخرى - القرابة، الأسطورة، الطقوس، التبادل الاقتصادي - أيضاً وفقاً لمبادئ مماثلة للقيمة التفاضلية؟

2.2 البنيوية الأنثروبولوجية: ليفي شتراوس وبنى العقل

نقل كلود ليفي شتراوس، الذي عمل في فرنسا في منتصف القرن العشرين، رؤى سوسور اللسانية إلى مجال الأنثروبولوجيا، مما شكل بشكل جذري كيفية فهمنا للأنظمة الثقافية. كان زعمه المركزي هو أنه تحت التنوع الظاهر للثقافات البشرية تكمن بنى عالمية للعقل البشري تولد أشكالاً ثقافية من خلال المنطق التوافقي. تضمن منهج ليفي شتراوس تحديد الثنائيات المتقابلة التي تنظم الفكر البشري عبر الثقافات: نيء/مطهو، طبيعة/ثقافة، ذكر/أنثى، مقدس/مدنس. لا تعكس هذه التقابلات تمييزات تجريبية فحسب، بل تشكل فئات إدراكية أساسية ينظم البشر من خلالها التجربة. في تحليله لأنظمة القرابة في كتابه البنى الأولية للقرابة (1949)، أظهر ليفي شتراوس كيف مثلت التنظيمات الاجتماعية المختلفة بشكل ظاهري تبديلات مختلفة لعدد قليل من هياكل القرابة الأساسية.

اقترح ليفي شتراوس أن التركيز الصحيح للبحث الأنثروبولوجي يجب أن يكون "أنماط الفكر البشري الكامنة التي تنتج الفئات الثقافية التي تنظم النظرات العالمية". لقد اعتقد أن هذه الهياكل العقلية "لا تحدد

الثقافة، بل تعمل داخل الثقافة". مثل هذا تطورًا حاسمًا: لم تعد البنى تُرى كقيود خارجية بل كمبادئ توليدية داخلية للممارسة الثقافية.

2.3 السلف الاجتماعي: الوقائع الاجتماعية عند دوركايم

بينما نظر ليفي شتراوس إلى اللسانيات للإلهام، فإن بنيويته الأنثروبولوجية بنيت أيضًا على التقليد الاجتماعي لإميل دوركايم، الذي رآه مفهوم الوقائع الاجتماعية. عرف دوركايم الوقائع الاجتماعية بأنها "طرق التصرف والتفكير والشعور الموجودة خارج الفرد ولكنها تمارس السيطرة عليه". وتشمل هذه القوانين والعادات والمعايير والمؤسسات الخارجية والقسرية والعامّة في جميع أنحاء المجتمع.

ميز دوركايم بين الوقائع الاجتماعية المادية (المؤسسات الملموسة مثل الأنظمة القانونية والهياكل السياسية) والوقائع الاجتماعية غير المادية (القوى الثقافية غير الملموسة مثل القيم والمعايير والمعتقدات المشتركة). كلا النوعين موجودان بشكل مستقل عن الأفراد ويشكلان السلوك من خلال الضغط الاجتماعي. أظهرت دراسة دوركايم للانتحار كيف يمكن تفسير هذا الفعل الذي يبدو فرديًا من خلال وقائع اجتماعية مثل مستويات الاندماج والتنظيم.

مثل نهج دوركايم الوضعي - التعامل مع الوقائع الاجتماعية كـ "أشياء" يمكن دراستها علميًا - علم الاجتماع كتخصص متميز. مهد مفهومه الوعي الجمعي كواقع سوي جينيريس (من نوع خاص) أرضية أساسية لفهم البنيوية للأنظمة الثقافية كحقائق مستقلة تحكمها منطقتها الخاص.

3. البنيوية التكوينية: تركيب ديناميكي

3.1 ما بعد البنى الثابتة: الحاجة إلى نهج تكويني

واجهت البنيوية الكلاسيكية، على الرغم من رؤاها، قيودًا كبيرة. عانى نهجها التزامني - تحليل النظم في نقطة زمنية واحدة - في تفسير التغيير التاريخي والفعل البشري. تعاملت القوانين البنيوية التي حددتها "مع التعايش بدلاً من التغيير". تساءل النقاد عن كيف يمكن لمحللين مستقلين الوصول إلى نفس الاستنتاجات البنيوية وكيف يمكن للبنيوية أن تفسر الفعل البشري الفردي تاريخيًا.

أدت هذه القيود إلى ظهور ما نسميه البنيوية التكوينية - نهج يحتفظ بتركيز البنيوية على العلاقات النظامية مع إدخال أبعاد ديناميكية وتاريخية وقائمة على الممارسة. يشير مصطلح "تكويني" هنا ليس إلى

البيولوجيا بل إلى العمليات التوليدية - كيف تنشأ البنى وتُنتج وتتحول من خلال النشاط البشري مع مرور الوقت.

3.2 التركيب النظري لبورديو: الهابيتوس، الحقل، ورأس المال

يمثل بيير بورديو perhaps التطور الأكثر تطوراً للنبوية التكوينية. عمله يدمج رؤى بنيوية مع نظرية ممارسة تعبر الفجوة الاجتماعية الدائمة بين البنية والفعل. يقدم مفهوم بورديو المركزي الهابيتوس الرابط الحاسم: "أنظمة من الاستعدادات الدائمة والقابلة للنقل، هياكل منظمة مهياً لتعمل كهياكل منظمة".

يشير الهابيتوس إلى العادات والمهارات والاستعدادات المتأصلة بعمق والتي يطورها الأفراد من خلال تربيتهم وبيئتهم الاجتماعية. إنه يمثل استدماج الهياكل الاجتماعية التي توجه بعد ذلك السلوك، غالباً دون وعي. كما يشرح بورديو، يوفر الهابيتوس "شعوراً باللعبة" - اتصالاً بديهيًا ومجسداً ومفترضاً مع الحركات والإيماءات".

يقدم إطار بورديو ثلاثة مفاهيم مترابطة:

1. **الهابيتوس**: الاستعدادات المجسدة التي تولد التصورات والتقديرية والأفعال.

2. **الحقل**: الفضاء الاجتماعي المنظم الذي يتنافس فيه الفاعلون والمؤسسات على الموارد والشرعية.

3. **رأس المال**: الموارد (الاقتصادية، الثقافية، الاجتماعية، الرمزية) التي تمنح السلطة داخل الحقول.

تصبح القيمة، في إطار بورديو، خاصة بالحقل - ما يعتبر رأسمالاً قيماً يختلف عبر الفضاءات

الاجتماعية (تقيّم الحقول التعليمية المؤهلات الأكاديمية، وتقيّم الحقول الفنية الابتكار الإبداعي، إلخ). علاوة

على ذلك، تنشأ القيمة علائقياً من خلال الصراعات حول تعريف ما يشكل رأسمالاً شرعياً داخل حقل ما.

3.3 البعد الماركسي: القيمة كعلاقة اجتماعية

بالتوازي مع التقليد اللساني-الأنثروبولوجي، طورت النظرية الماركسية تحليلها الخاص المتطور للقيمة،

خصوصاً من خلال نظرية قيمة العمل لماركس. ميز ماركس بين قيمة الاستخدام (قدرة السلعة على إشباع

الرغبات) وقيمة التبادل (قيمتها النسبية مقابل سلع أخرى). جادل بأن قيمة التبادل مستمدة من مقدار وقت

العمل الضروري اجتماعياً المطلوب للإنتاج.

بالنسبة لماركس، تمثل القيمة علاقة اجتماعية متكررة كعلاقة بين أشياء - ما أسماه "تشيؤ السلعة". ينتج الإنتاج الرأسمالي "فائض القيمة" من خلال دفع أجور للعمال أقل من قيمة عملهم، مما يؤدي إلى استغلال. بينما يختلف حتمية ماركس الاقتصادية عن تركيز البنيوية على الأنظمة الرمزية، يتشارك كلا التقليدين في فهم القيمة كعلائقية وليس جوهرية.

يذكرنا التقليد الماركسي بأن هياكل القيمة ليست أبداً محايدة بل متورطة دائماً في علاقات القوة والهيمنة. سيتم دمج هذه الرؤية في الفكر البنيوي اللاحق، خصوصاً في عمل لويس ألتوسير، الذي فحصت ماركسيته البنيوية كيف تعيد أجهزة الدولة الأيديولوجية إنتاج العلاقات الرأسمالية.

4. مفهوم القيمة البنيوية: إطار متعدد الأبعاد

4.1 تعريف القيمة البنيوية

بعد تتبع تطورها النظري، يمكننا الآن صياغة مفهوم شامل للقيمة البنيوية. في البنيوية التكوينية، تشير القيمة إلى:

1. القيمة الموضوعية: الأهمية التي يستمدتها العنصر من موقعه داخل نظام من العلاقات والاختلافات.
2. المبدأ التوليدي: المنطق الذي يحكم ما يمكن الاعتراف به كمعنى، شرعي، أو مرغوب داخل مجال منظم.
3. رأس المال القابل للتحويل: الموارد التي يمكن نقلها عبر حقول اجتماعية مختلفة (اقتصادية، ثقافية، اجتماعية، رمزية).

4. الاستعداد المجدد: المخططات المستمجة التي توجه التصور والتقدير والفعل دون حساب واع. يسمح لنا هذا الفهم متعدد الأبعاد بتحليل كيفية عمل القيمة عبر سجلات مختلفة من الحياة الاجتماعية مع الحفاظ على التماسك المفاهيمي.

4.2 المنطق العلائقي للقيمة

الرؤية التأسيسية لنظرية القيمة البنيوية هي منطقها العلائقي. لا تقيم القيمة في عناصر معزولة بل تنشأ من ترابطها المنهجي. يمكننا تحديد عدة آليات تعمل من خلالها هذه القيمة العلائقية:

- **التقابل الثنائي:** تنشأ القيمة من خلال أزواج متباينة (مقدس/مدنس، نقي/دنس، مميز/سوقي). أظهر ليفي شتراوس كيف تنظم هذه التقابلات الأنظمة الأسطورية عبر الثقافات.

- **الموضع النظامي:** تعتمد قيمة العنصر على مكانه داخل الهيكل العام. في اللغة، تكتسب الفونيمات قيمتها من سماتها المميزة داخل النظام الصوتي.

- **الحفاظ على الحدود:** تُنتج القيمة من خلال ديناميكيات الإدراج/الاستبعاد. ما يُعرّف كقيم غالباً يعتمد على ما يُستبعد كلاً قيمة.

- **إمكانية التحويل:** تزداد القيمة عندما يمكن تحويل الموارد عبر حقول مختلفة (رأس المال الاقتصادي إلى رأس المال الثقافي، إلخ).

يفسر هذا الفهم العلائقي لماذا يمكن أن يكون لنفس الشيء أو الممارسة قيم مختلفة جذرياً في سياقات مختلفة - قد تُقدر لوحة كفن في متحف، وكأصل مالي في سوق، أو كرمز مكانة في منزل.

4.3 الأبعاد المادية والرمزية للقيمة

تعمل القيمة البنيوية عبر أبعاد مادية ورمزية تتفاعل باستمرار:

- **القيمة المادية:** موارد ذات منفعة ملموسة أو إمكانية تبادل (مال، ممتلكات، سلع). يكشف تحليل ماركس لتشيؤ السلعة عن كيفية تضمين العلاقات الاجتماعية في التبادلات المادية.

- **القيمة الرمزية:** الدلالة المستمدة من أنظمة المعنى وليس المنفعة المادية. يشير مفهوم بورديو لرأس المال الرمزي إلى الهوية والشرف والاعتراف الذي يعمل كموارد سلطة.

- **القيمة المجسدة:** الاستعدادات والهكسيس الجسدي الذي يشير إلى المكانة الاجتماعية. لاحظ بورديو كيف تكشف هيئة الجلوس واللكنة والسلوك الجسدي عن الفروق الطبقيّة وتعيد إنتاجها.

تكمّن قوة القيمة البنيوية تحديداً في قدرتها على التحويل عبر هذه الأبعاد - يمكن لرأس المال

الاقتصادي شراء فرص تعليمية تنتج رأس مال ثقافي، والذي بدوره يمكن تحويله مرة أخرى إلى ميزة اقتصادية.

5. الخاتمة:

عندما نختم هذا الاستكشاف للبنوية التكوينية ومفهوم القيمة، تظهر عدة رؤى رئيسية:

أولاً، القيمة علائقية ومنهجية بشكل أساسي وليست جوهرية. سواء كان تحليل الفونيمات، أو علاقات القرابة، أو الأذواق الثقافية، تنشأ الدلالة من الموضع داخل كل منظم.

ثانيًا، البنى ليست قيودًا ثابتة بل مبادئ توليدية تنتج الممارسات والتصورات والمؤسسات. يؤكد البعد التكويني على كيفية ظهور البنى وتحولها من خلال الممارسة التاريخية.

ثالثًا، تعمل القيمة عبر أبعاد متعددة - مادية، رمزية، مجسدة - وتكتسب القوة من التحويل عبر المجالات. يعمل رأس المال الاقتصادي، المعرفة الثقافية، الروابط الاجتماعية، والاعتراف الرمزي كموارد قابلة للتبادل داخل المجتمعات الطبقيّة.

رابعًا، أنظمة القيمة البنوية ليست أبدًا محايدة بل متورطة دائمًا في علاقات القوة وعدم المساواة. ما يُعد قيمًا يعكس عادةً التراتيبات الاجتماعية القائمة ويعيد إنتاجها، حتى عندما يبدو طبيعيًا أو موضوعيًا. أخيرًا، يوفر النهج البنوي أدوات قوية لكشف الواقع الاجتماعي. من خلال الكشف عن المنطق العلائقي الكامن وراء الفئات التي تبدو طبيعية، يتيح التحليل النقدي لكيفية إنشاء المجتمعات لأنظمة المعنى وعدم المساواة والنظام والحفاظ عليها.

تكمن الأهمية الدائمة للبنوية التكوينية في قدرتها على إلقاء الضوء على الهياكل العميقة التي تشكل عالمنا مع الأخذ في الاعتبار الفعل البشري والتغيير التاريخي. في عصر التحول الاجتماعي العميق، يظل إطارها التحليلي ضروريًا لفهم كيفية إنشاء القيمة والمنتازع عليها وتحويلها عبر مجالات متنوعة من الحياة البشرية.

البنيوية التكوينية (أو التوليدية) هي إطار نظري طوره في منتصف القرن العشرين الفيلسوف وعالم الاجتماع الروماني الفرنسي لوسيان غولدمان. تمثل توليفاً مقصوداً بين ثلاثة تيارات فكرية كبرى: المعرفة التكوينية (الإبيستمولوجيا التكوينية) لـ جان بياجيه، والماركسية الجدلية لـ جورج لوكاش، والتأكيد البنيوي على النظم العلائقية. فكرة غولدمان المركزية هي أن البنى العقلية والاجتماعية ليست أشكالاً ثابتة وخالدة، بل هي نتاج ديناميكي ومتطور تاريخياً للنشاط البشري. كما قال: "تتشأ البنى العقلية وتتغير باستمرار من خلال النشاط البشري، أي من خلال ممارسة جماعة اجتماعية محدودة". يسعى هذا النهج إلى التغلب على جمود البنيوية الكلاسيكية (التي تعامل البنى على أنها دائمة وعالمية) وإختزالية الذرية الحتمية، مقدماً بدلاً من ذلك نموذجاً جدلياً يفحص كيفية توليد البنى وتحولها واستبدالها في النهاية مع مرور الوقت.

أسس غولدمان النظرية في ستينيات القرن العشرين وهو معروف بشكل رئيسي بتطبيقها على علم اجتماع الأدب. ومع ذلك، كما سنرى، فإن مدى البنيوية التكوينية يمتد إلى ما هو أبعد من النقد الأدبي إلى الدراسات الثقافية، والفلسفة، وعلم اجتماع المعرفة، وحتى علم النفس النمائي. ستستعرض هذه المحاضرة المجالات الأساسية التي تدرسها البنيوية التكوينية، وأدواتها المنهجية، وإسهاماتها الدائمة في العلوم الإنسانية.

أولاً: الأسس النظرية: بياجيه، لوكاش، وماركس

1. المعرفة التكوينية لبياجيه: درس غولدمان مع جان بياجيه لمدة عامين وأدمج سيكولوجيته التطورية في إطاره النظري. أظهر بياجيه أن البنى المعرفية (المخططات) ليست فطرية بل تُبنى من خلال عملية مستمرة من التكيف والاستيعاب والمواءمة. وقد وفر هذا المنظور "التكويني" - المركّز على نشأة البنى - لغولدمان نموذجاً لفهم كيفية نشوء البنى العقلية الجماعية وتغيرها عبر الممارسة التاريخية.

2. الماركسية الجدلية لوكاش: اقترض غولدمان من لوكاش الشاب مفاهيم الكلية، والنشبيء، والوعي الطبقي. جادل لوكاش بأن العلاقات الاجتماعية تحت الرأسمالية تصبح مُشيأة (تُعامل كأشياء)، مما يؤدي إلى تفتيت خبرة الكلية. بالنسبة لغولدمان، فإن مهمة البنيوية التكوينية هي استعادة العلاقة الجدلية بين الجزء والكل، بين المنتج الثقافي والكلية الاجتماعية الأوسع التي تمنحه معناه.

3. **المادية التاريخية الماركسية:** بقي غولدمان ماركسيًا، وإن كان غير تقليدي. وأصر على أن "الوقائع البشرية" لا يمكن فهمها إلا على أنها "توتر فعلي للقوى في حالة توازن ديناميكي، موجه نحو المستقبل". الوجود الاجتماعي يحدد الوعي، ولكن الوعي ليس انعكاسًا بسيطًا؛ بل هو استجابة إبداعية منظمة للتناقضات التاريخية.

4. **المنهج البنيوي:** بينما كان ناقدًا للنزعة اللاتاريخية للبنوية الكلاسيكية، احتفظ غولدمان بتأكيداتها على العلاقات والأنظمة. وسعى إلى "إنقاذ النظرية البنوية من الركود والجمود وعدم الفعالية في تفسير التغيرات التاريخية" من خلال إضافة بعد النشأة والتكوين.

النتيجة هي توليف أصلي أطلق عليه غولدمان اسم البنوية التكوينية - "نموذج شكلي" يدمج فئات من بياجيه ولوكاش وماركس.

ثانيًا: مجالات الدراسة في البنوية التكوينية

1. علم اجتماع الأدب:

هذا هو المجال الذي اشتهر به غولدمان بشكل أكبر. تعامل البنوية التكوينية الأعمال الأدبية ليس كإبداعات خاصة لعباقرة معزولين، بل كتعبير عن رؤى للعالم يتم صياغتها جماعيًا من قبل المجموعات الاجتماعية. العمل الأدبي هو "عنصرٌ تأسيسي للوعي الاجتماعي". وحدة التحليل الرئيسية لدى غولدمان هي الذات عبر الفردية - الوعي الجماعي للمجموعة التي تشترك في خبرة عقلية وعاطفية مشتركة للعالم. مثال: في كتابه الإله الخفي (1955)، يحلل غولدمان الرؤية المأساوية في خواطر باسكال وتراجيديات راسين. ويبين كيف تعبر هذه الرؤية عن أزمة النبلاء الفرنسيين في القرن السابع عشر، المحصورين بين الملكية المطلقة والبرجوازية الصاعدة. البنية الأدبية للأعمال تماثل البنية العقلية للمجموعة الاجتماعية، كاشفة عن علاقة جدلية بين النص وسياقه التاريخي.

مثال: في كتابه نحو سوسولوجيا للرواية (1964)، يجادل غولدمان بأن شكل الرواية ينشأ مع المجتمع البرجوازي الفردي. تعكس بنية الرواية الخبرة المُشيأة والمفتتة للذات البرجوازية، التي تبحث (دون أن تصل كليًا) عن كلية متماسكة.

2. الدراسات الثقافية والإبداع الثقافي:

توفر البنيوية التكوينية إطارًا لتحليل أي منتج ثقافي - فن، موسيقى، أيديولوجيا، موضة - كنتيجة للبنى العقلية لمجموعة اجتماعية. عمل غولدمان اللاحق، مثل الإبداع الثقافي في المجتمع الحديث (1976)، يفحص كيف يشكل الحدائة الرأسمالية الإنتاج الثقافي. ويؤكد أن "البنى ليست لها عنصر مثالوي أو كانطي جديد؛ إنهم البشر الذين يتصرفون جماعياً وعلى أساس طبقي من أجل خلق أو تغيير هذه البنى". وبالتالي، فإن الإبداع الثقافي هو دائماً ممارسة منظمة تعكس العالم الاجتماعي وتشكله بنشاط في آن واحد.

3. الفلسفة والعلوم الإنسانية:

طبق غولدمان البنيوية التكوينية على تاريخ الفلسفة وعلى الأسئلة المعرفية. أطروحته للدكتوراه المبكرة عن كانط، وكذلك أعمال لاحقة مثل العلوم الإنسانية والفلسفة (1973) وفلسفة التنوير (1973)، تعامل الأنظمة الفلسفية كروى للعالم متجذرة تاريخياً. بالنسبة لغولدمان، الفلسفة ليست خطاباً منفصلاً عن الجسد بل هي "تعبير نظري عن البنى العقلية لمجموعة اجتماعية". تصبح البنيوية التكوينية بذلك منهجاً لسوسيولوجيا الفلسفة، يربط المفاهيم الفلسفية بتناقضات عصرها الاجتماعية.

4. سوسيولوجيا المعرفة والأيدولوجيا:

مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بسوسيولوجيا الأدب والفلسفة، يستخدم هذا المجال البنيوية التكوينية لتحليل كيفية إنتاج المجموعات الاجتماعية للمعرفة والأيدولوجيات والتمثيلات الجماعية. تساعد مفاهيم غولدمان عن رؤية العالم والوعي الممكن (المقترض من لوكاش) في تفسير سبب هيمنة أفكار معينة في فترة تاريخية معينة. يتجنب هذا النهج كلاً من الاختزالية الاقتصادية والاستقلالية المثالية، مصرّاً على علاقة جدلية بين البنية العقلية للمجموعة والبنية الاجتماعية الأوسع.

5. الأنثروبولوجيا وعلم النفس النمائي:

من خلال تأثير بياجيه، تدمج البنيوية التكوينية منظوراً تطورياً للإدراك البشري. تدرس نشأة البنى العقلية لدى الأفراد والمجتمعات، متسائلة عن كيفية بناء المخططات المعرفية من خلال التفاعل مع البيئة. يسمح هذا البعد للبنيوية التكوينية بجسر الهوة بين علم النفس وعلم الاجتماع، مظهرة كيف أن التطور النفسي الفردي يتم بواسطة العمليات التاريخية الجماعية.

ثالثاً: المنهجية التحليلية

تستخدم البنيوية التكوينية مجموعة مميزة من الأدوات المنهجية:

التحليل التزامني: يفحص العلاقات الداخلية لبنية ما في لحظة معينة، محددًا تناقضاتها وتوازنها.

التحليل التتابعي (الدياكروني): يتتبع التطور التاريخي للبنية - تشكيلها، تحولها، وتحللها في النهاية.

الكلية النسبية: لا توجد بنية معزولة؛ كل بنية هي جزء من كلية أوسع يجب أخذها في الاعتبار. يتحدث غولدمان عن "بنى أوسع" يسميها كليات نسبية.

التحليل الوظيفي: يتساءل عن كيفية عمل كل عنصر من عناصر البنية للحفاظ على الكل أو تعطيله.

التشابه البنيوي (التمائل): يبحث عن أوجه تشابه هيكلية بين مستويات مختلفة من الواقع (مثلاً، بين نص أدبي والبنية العقلية لمجموعة اجتماعية).

تتيح هذه الأدوات للباحث الانتقال من مجرد الوصف إلى تفسير سبب ظهور شكل ثقافي معين في لحظة تاريخية محددة وأي تناقضات اجتماعية يعبر عنها.

رابعاً: أمثلة على التطبيق

بعد دراسات غولدمان الخاصة، تم تطبيق البنيوية التكوينية على مجموعة واسعة من الظواهر الثقافية:

الأدب المعاصر: تحليلات للروايات والمسرحيات والشعر التي تكشف عن رؤى العالم لدى المجموعات الاجتماعية الحديثة (مثل "الجيل الضائع"، النخب ما بعد الاستعمارية، إلخ).

السينما والإعلام: دراسات تعامل السرد السينمائي كتعبيرات عن البنى العقلية الجماعية في الرأسمالية المتأخرة.

الأيدولوجيا السياسية: فحوص لكيفية تعبير الخطابات السياسية (مثل النيوليبرالية، الشعبوية) عن تناقضات طبقات اجتماعية محددة.

يبقى هذا النهج منتجاً بشكل خاص في علم اجتماع الأدب، حيث لا يزال يلهم البحث الذي يربط الشكل النصي بالسياق الاجتماعي.

خامساً: الانتقادات والإرث

لم تخلُ البنيوية التكوينية من منتقديها. فقد اتهمها الماركسيون الألتوسيريون بـ "التاريخانية" و "الإنسانية"،

رافضين قراءتها الجدلية للكلية لصالح نموذج بنيوي حتمي أكثر جموداً. فيما بعد، انتقدها ما بعد البنيويون لتأكيداتها على الكلية ولبحثها عن تماثلات، مفضلين التأكيد على الاختلاف والتفتت وعدم استقرار المعنى.

ومع ذلك، فإن إرث البنيوية التكوينية كبير. ساعدت في تأريخ البنيوية، مقدمة بعدًا تطوريًا ديناميكيًا يمكن لنظريات التغيير الثقافي اللاحقة البناء عليه. كما وفرت إطارًا متعدد التخصصات قويًا يربط بين علم الاجتماع والدراسات الأدبية والفلسفة وعلم النفس. اليوم، يمكن رؤية تأثيرها في علم الاجتماع الثقافي، والنظرية النقدية، وسوسيولوجيا المعرفة، حيث تبقى الجدلية بين البنية الاجتماعية والإنتاج الثقافي محل اهتمام مركزي.

الخاتمة

تقدم البنيوية التكوينية، كما صاغها لوسيان غولدمان، نهجًا قويًا ومتجذرًا تاريخيًا لدراسة الظواهر الثقافية والاجتماعية. من خلال توليف المعرفة التكوينية لبياجيه، والماركسية الجدلية للوكاش، والمنهج البنيوي، توفر مجموعة من الأدوات المفاهيمية لفهم كيفية نشوء البنى العقلية وتغيرها وتشكيلها للإبداع البشري. تُظهر مجالات تطبيقها - من علم اجتماع الأدب إلى فلسفة العلم - تنوعها وأهميتها الدائمة. في عصر الاهتمام المتجدد بالعلاقات بين الثقافة والقوة والتاريخ، تدعونا البنيوية التكوينية إلى رؤية كل منتج ثقافي ليس كقطعة أثرية معزولة، بل ك تعبير منظم عن رؤية جماعية للعالم، دائمًا في طور التشكل وإعادة التشكل من خلال الممارسة البشرية.

محاضرة 06: أسس البنيوية التكوينية - البنية التاريخية

1 المقدمة: تعريف البنيوية التكوينية

تمثل البنيوية التكوينية واحدة من أكثر المحاولات تطوراً داخل الماركسية الغربية في القرن العشرين للتوفيق بين التحليل البنيوي و الديناميكية التاريخية. طوّرها بشكل رئيسي الفيلسوف وعالم الاجتماع الروماني الفرنسي لوسيان غولدمان (1913-1970)، حيث ظهرت هذه الإطار النظري كتدخل مقصود ضد الحتمية البنيوية الصارمة والفردية الذرية على حد سواء. يمكن تعريف منهج غولدمان على أنه توليف منهجي يدمج الماركسية الجدلية السوسيولوجية لجيورجي لوكاتش مع نظرية المعرفة التكوينية لعالم النفس التتموي جان بياجيه. يخلق هذا الاندماج عدسة تحليلية فريدة من خلالها تُفهم المنتجات الثقافية - وخاصة الأعمال الأدبية - ليس كقطع أثرية معزولة ولكن كبنى ذات معنى تنشأ من وتتفاعل مع الجماعات الاجتماعية الواقعة تاريخياً. على عكس البنيوية التقليدية، التي تعاملت غالباً مع البنى كنظم ثابتة وتزامنية، تصر البنيوية التكوينية على نشأتها التاريخية و إمكاناتها التحويلية. وفقاً لغولدمان، البنى ليست أشكالاً أفلاطونية أبدية ولا مجرد انعكاسات للظروف الاقتصادية، بل هي كليات ديناميكية تتطور من خلال الممارسة البشرية. يحافظ طرحه المركزي على أن "البنى العقلية تنشأ وتتغير باستمرار من خلال النشاط البشري، أي من خلال ممارسة مجموعة اجتماعية محدودة". يضع هذا المنظور الإبداع الثقافي كمشروع جماعي وليس كمسعى فردي بحت، حيث تعبر الأعمال الأدبية عما أسماه غولدمان "رؤى العالم" (visions du monde) - أطر مفاهيمية متماسكة تفهم من خلالها الجماعات الاجتماعية وتستجيب لظروفها التاريخية.

كان مشروع غولدمان إنسانياً و جدلياً في جوهره، يسعى للحفاظ على الوكالة البشرية مع الاعتراف بقيود الشروط البنيوية. جادل ضد التفسيرات الحتمية البحتة للمجتمع (التي أسماها "الذرية") وكذلك ضد البنيوية غير التكوينية التي نظرت إلى البنى على أنها دائمة وعالمية. بدلاً من ذلك، يقترح إطاره النظري أن الواقع موجود في حالة دائمة من "الهيكلية والتشيم"، حيث تخلق الجماعات البشرية باستمرار وتحوّل البنى العقلية التي تنظم تجربتها. ستعرض هذه المحاضرة التطور التاريخي للبنيوية التكوينية، وتفحص مفاهيمها النظرية الأساسية، وتحلل تطبيقاتها المنهجية، وتقيم أهميتها المستمرة للتحليل الثقافي المعاصر.

2 السياق الفلسفي والتاريخي: الأنساب الفكرية

بُني المعمار الفكري للبنىوية التكوينية من خلال انخراط غولدمان النقدي مع تقاليد فلسفية متعددة، مخلقاً ما وصفه بـ "المجال الجدلي" الذي يجمع بين النظرية النقدية الألمانية، البنوية الفرنسية، و علم النفس التتموي. يمثل هذا التوليف الانتقائي جهداً مقصوداً للتغلب على القيود النظرية التي أدركها غولدمان في كل تقليد مصدر مع الحفاظ على رؤاه الأكثر إنتاجية. فهم هذا الأصل الفكري ضروري لتقدير حداثة وتعقيد منهجه.

تشكلت أسس غولدمان الفلسفية بشكل عميق من خلال تجاربه الأكاديمية المبكرة. بعد دراسة القانون في بوخارست وفيينا، انتقل إلى باريس عام 1934، حيث انغمس في الاقتصاد السياسي والأدب والفلسفة. أظهرت أطروحته للدكتوراه عن إيمانويل كانت، التي أكملها في جامعة زيورخ عام 1945 تحت إشراف كارل دور، بالفعل اهتمامه المميز بتوليف تقاليد تبدو متباعدة. ومع ذلك، جاءت أكثر التأثيرات الفكرية حسماً من مفكرين من القرن العشرين: جيورجي لوكاتش وجان بياجيه. من لوكاتش، تبنى غولدمان مفاهيم أساسية مثل الكلية، الوعي الطبقي، التشيؤ، وفهم الأشكال الثقافية كتعبيرات عن الوعي التاريخي الجماعي. من بياجيه، اقتترض فكرة البنى كعمليات تنموية تتسم بالبناء والتوازن والتحول المستمر.

من المهم أن غولدمان وضع البنوية التكوينية داخل نسب تاريخي أوسع، حيث جادل بأن كارل ماركس، وجورج فيلهلم فريدريش هيغل، وسيغmond فرويد قد استخدموا جميعاً مناهج البنوية التكوينية في عملهم دون استخدام المصطلح. يكشف هذا الادعاء عن طموح غولدمان لوضع منهجه داخل تقليد فلسفي رئيسي بدلاً من تقديمه كقطيعة جزرية. وأكد بشكل خاص على التقليد الجدلي الهيجلي-الماركسي، الذي يفهم التطور التاريخي كمضيّ قديماً من خلال التناقضات وحلها. ومع ذلك، انحرف غولدمان عن الماركسية التقليدية بطرق مهمة، خاصة في سنواته اللاحقة عندما أعرب عن تشككه في الإمكانيات الثورية للبروليتاريا وبدأ في استكشاف نماذج أكثر تعقيداً للتحول الاجتماعي تشمل مجموعات اجتماعية متعددة.

كما شكل السياق التاريخي لعمل غولدمان تطوره. كتب خلال الحرب الباردة، وتتنقل بين المادية الجدلية على الطريقة السوفيتية والفردية الليبرالية الغربية، ساعياً إلى طريق ثالث يعترف بالتحديد البنوي دون القضاء على الوكالة البشرية. عرّضته تجاربه كلاجئ يهودي خلال الحرب العالمية الثانية وموقعه اللاحق في مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية في باريس للتيارات الفكرية الرئيسية في أوروبا ما بعد الحرب، بما في ذلك الوجودية، والظواهرية، والحركة البنوية الناشئة. يمكن فهم البنوية التكوينية لغولدمان على هذا النحو

كمنتج واستجابة لهذه البيئة الفكرية الغنية، مما يقدم منهاجاً مميزاً للمشكلة النظرية الاجتماعية الدائمة للبئية والوكالة.

3 المفاهيم النظرية الأساسية في إطار غولدمان

3.1 الذات عبر الفردية والوعي الجماعي

في قلب البنيوية التكوينية لغولدمان تكمن إعادة تصويره المبتكر للذات الفاعلة. رافضاً كل من الفرد الذري للنظرية الليبرالية و الذات المُحددة للمادية الساذجة، اقترح غولدمان "الذات عبر الفردية" كوحدة التحليل المناسبة لفهم الإبداع الثقافي. يمثل هذا المفهوم الجماعات الاجتماعية التي تحقق تماسكاً كافياً في "تجربتها الفكرية والعاطفية للعالم" لتعمل كوكلاء جماعيين. بالنسبة لغولدمان، الأعمال الثقافية العظيمة - سواء كانت أطروحات فلسفية أو نصوصاً أدبية أو منتجات فنية - ليست أبداً إنجازات فردية بحتة بل تعبيرات عن هذا الوعي عبر الفردي.

تعمل الذات عبر الفردية لغولدمان من خلال ما أسماه "رؤى العالم" - أطر فهم متماسكة تنشأ عندما تواجه الجماعات الاجتماعية مشاكل أساسية داخل وضعها التاريخي. هذه الرؤى للعالم ليست أنظمة فلسفية مقصودة ولا أيديولوجيات صريحة، بل هي بنى عقلية ضمنية تنظم الإدراك والتقييم والفعل. توجد ك "بنى ذات معنى" تتجلى من خلال أشكال موضوعية متنوعة، مع تمثيل الإبداع الأدبي تعبيراً مهماً بشكل خاص. العلاقة بين الجماعة الاجتماعية والخالق الثقافي ليست بالتالي علاقة تحديد بسيط بل علاقة توافق بنيوي متماثل، حيث تتماشى البنى العقلية للخالق مع الوعي الجماعي لمجموعته دون أن تكون بالضرورة مقصودة بوعي.

3.2 جدلية الذات-البنية والتطور التاريخي

يعيد إطار غولدمان تصور العلاقة بين الذات والبنى بشكل أساسي ك جدلية ديناميكية وليس ك معارضة ثابتة. مستمداً من الجدليات الهيغلية-الماركسية وعلم النفس التنموي للبياجيه، تصور البنى على أنها تتطور من خلال عملية مستمرة من "البناء-الهدم" مدفوعة بالممارسة البشرية. يحافظ هذا المنظور على أن البنى ليست تجريدات مثالية ولا تحديدات مادية، بل هي منتجات تاريخية للنشاط البشري الجماعي الذي يشكل بدوره ذلك النشاط. يتجنب النموذج الناتج كلاً من الشكلية اللاتاريخية للبنيوية الكلاسيكية و المادية الاختزالية للماركسية الساذجة.

يتيح هذا المنهج الجدلي لغولدمان تحليل الظواهر الثقافية بشكل تزامني (فحص علاقاتها البنيوية الداخلية) و تعاقبي (تتبع تطورها التاريخي). كما أوضح، يجب النظر إلى البنى في علاقتها بـ "عمليات تاريخية أوسع للهيكلة والتهشيم" مع الأخذ في الاعتبار أيضاً "بعدها المستقبلي". تنتمي كل ظاهرة إلى بنى متعددة في وقت واحد، مع تمييز غولدمان بين البنى الأصغر و "الكليات النسبية" الأوسع التي تحتويها. الإطار التحليلي الناتج هو بطبيعته علائقي ومتعدد الأبعاد، يرفض عزل القطع الأثرية الثقافية عن سياقاتها التاريخية أو اختزالها إلى انعكاسات بسيطة للظروف الاقتصادية.

4 المنهجية: البنيوية التكوينية في سوسولوجيا الأدب

يمثل المنهج المنهجي لغولدمان للتحليل الثقافي أحد أكثر تطبيقات إطاره النظري منهجية. طور البنيوية التكوينية كسوسولوجيا للأدب دقيقة يمكنها إلقاء الضوء على العلاقة بين الأشكال الأدبية والوعي الاجتماعي دون اللجوء إلى نظرية الانعكاس المبسطة. تتضمن هذه الطريقة ثلاث مراحل تحليلية متميزة ولكن مترابطة تنتقل تدريجياً من التحليل النصي إلى التسييق السوسولوجي.

تركز المرحلة الأولى على تحديد البنية المعنوية المتأصلة للعمل الأدبي نفسه. يتطلب هذا تحليلاً نصياً دقيقاً للكشف عن التنظيم المتناسك للثيمات والقيم والشخصيات والأنماط السردية التي تشكل الوحدة الداخلية للعمل. أصر غولدمان على أن هذا التحليل يجب أن يسبق أي بحث سوسولوجي، حيث يمتلك العمل الأدبي سلامته البنيوية الخاصة التي لا يمكن اشتقاقها مباشرة من العوامل الاجتماعية الخارجية. مهمة الناقد في هذه المرحلة هي إعادة بناء "البنية الدالة" التي تمنح العمل تماسكه ومعناه المميز.

في المرحلة الثانية، يفحص المحلل رؤية العالم المعبر عنها من خلال هذه البنية الأدبية. جادل غولدمان بأن الأعمال الأدبية الأكثر أهمية تعطي تعبيراً متماسكاً عن رؤى العالم التي تتجاوز وعي المؤلف الفردي، ممثلة بدلاً من ذلك البنى العقلية الجماعية لجماعات اجتماعية معينة. يتضمن هذا التحقيق في كيفية توافق بنية العمل مع أنماط أوسع من التفكير والشعور والتقييم المميزة لمجتمعات تاريخية محددة. كما أظهر غولدمان في دراساته عن باسكال وراسين، تتطلب هذه المرحلة التحليلية حساسية فلسفية للأطر المفاهيمية ومعرفة تاريخية بالسياقات الاجتماعية.

تؤسس المرحلة الثالثة الارتباط السوسيولوجي بين رؤية العالم المعبر عنها في العمل الأدبي والمجموعة الاجتماعية المحددة التي يعبر وعيها عنها. يتضمن هذا بحثاً تاريخياً لتحديد أي مجموعة أنتج موقفها البنيوي وتجربتها التاريخية رؤية العالم المحددة المعبر عنها في النص. كان غولدمان حريصاً على التمييز بين هذا المنهج والسوسيولوجيا الاختزالية، مؤكداً أن العلاقة كانت تماثلاً بنيوياً وليس سببية مباشرة. جادل بأن الإبداع الأدبي يحدث عندما يعطي فرد استثنائي (الـ "الوكيل المتعالي") تعبيراً متماسكاً بشكل خاص عن رؤية العالم لمجموعته الاجتماعية.

تمثل منهجية غولدمان بالتالي بديلاً متطوراً لكل من التحليل الأدبي الشكلي البحث والمناهج السوسيولوجية الحتمية الساذجة. من خلال تتبع التماثلات البنيوية بين الأشكال الأدبية والوعي الاجتماعي، سعى إلى توضيح كيفية نشوء الإبداعات الثقافية من العمليات التاريخية والمساهمة فيها. يتطلب هذا المنهج من المحلل الانتقال باستمرار بين القراءة الدقيقة والتسييق التاريخي، وبين التحليل البنيوي والتفسير التكويني، مع الحفاظ على ما أسماه غولدمان "الحلقة المعرفية للذات والموضوع".

5 الخاتمة:

تمثل البنيوية التكوينية للوسيان غولدمان محاولة مميزة وطموحة لتطوير سوسيولوجيا جدلية للثقافة تحترم كل من سلامة الأشكال الثقافية وتجذرها التاريخي. من خلال توليف عناصر من الماركسية الهيغلية، والبنيوية، ونظرية المعرفة التكوينية، خلق غولدمان إطاراً نظرياً يتجاوز العديد من الثنائيات التقليدية في النظرية الاجتماعية: بين التزامن والتعاقب، بين البنية والوكالة، بين التحديد الجماعي والإبداع الفردي.

تكمن الأهمية التاريخية للبنيوية التكوينية في توقيتها وموقعها داخل التاريخ الفكري للقرن العشرين. ظهرت خلال صعود كل من البنيوية والماركسية الغربية، قدمت بديلاً نقدياً للميول الشكلية المتزايدة في التحليل البنيوي مع مقاومة الاختزالية الاقتصادية للماركسية التقليدية. مثل إصرار غولدمان على أن للبنى تاريخاً - أنها تُنتج وتتحوّل وتُستبدل في النهاية من خلال الممارسة البشرية - تصحيحاً مهماً للبنيوية اللاتاريخية مع الحفاظ على رؤى البنيوية حول النظم العلائقية للمعنى.

بالنسبة للباحثين المعاصرين، تكمن قيمة البنيوية التكوينية الدائمة أقل في وصاياها المنهجية المحددة وأكثر في حسها النظري - التزامها بفهم الظواهر الثقافية كبنى وتاريخية في وقت واحد، كمنتجات للظروف

الاجتماعية وكُمساهمات في التحول الاجتماعي. يبقى هذا الحس الجدلي حاسماً لتحليل لحظتنا التاريخية، التي تتسم بالتغير الثقافي السريع، والهويات الجماعية المتغيرة، والوساطات المعقدة بين التجربة الفردية والقوى البنوية. بينما يواصل التحليل الثقافي التنقل بين النصية والتسييق، والشكلية والتاريخية، تقدم البنوية التكوينية لغولدمان نموذجاً متطوراً لكيفية التوفيق بين هذه الأضداد الواضحة بشكل منتج.

تتبع المحاضرة أسس البنوية التكوينية من أصولها الفلسفية عبر مفاهيمها النظرية الأساسية إلى تطبيقاتها المنهجية. على الرغم من عدم خلوها من القيود، يواصل إطار غولدمان تحدي الباحثين للتفكير علائقياً حول الثقافة والمجتمع، والاهتمام بالشكل والنشأة معاً، والتعرف في الإبداعات الثقافية ليس مجرد انعكاسات للواقع الاجتماعي بل مساهمات نشطة في تحوله المستمر. في هذا الصدد، تبقى البنوية التكوينية ليست مجرد قطعة أثرية تاريخية لنظرية منتصف القرن العشرين، ولكن تقليداً حياً بأهمية مستمرة لفهم العلاقات المعقدة بين الوعي والثقافة والبنية الاجتماعية.

المحاضرة 06: أسس البنيوية التكوينية: البنية الأيديولوجية

1. المقدمة:

نجتمع اليوم لاستكشاف أحد أهم التركيبات النظرية في الفكر الاجتماعي في القرن العشرين: البنيوية التكوينية. ظهر هذا المنهج كاستجابة نقدية لحدود البنيوية الكلاسيكية مع الحفاظ على نقاط قوتها التحليلية. بينما ركزت البنيوية التقليدية، وخاصة كما طورها فرديناند دو سوسور في اللسانيات وكلود ليفي شتراوس في الأنثروبولوجيا، على التحليل التزامني - أي دراسة الأنظمة كما توجد في لحظة معينة - فقد أدخلت البنيوية التكوينية بُعدًا تزامنيًا حاسمًا، متسائلة عن كيفية نشوء البنى وتطورها وتحولها تاريخيًا.

المشكلة المركزية التي تعالجها البنيوية التكوينية هي العلاقة بين الفاعلية الإنسانية والتحديد البنيوي في إنتاج الأيديولوجيا. كيف تشكل البنى الاجتماعية الوعي، وكيف بدورها يحول الفعل الإنساني (البراكسيس) هذه البنى؟ عرّف الفيلسوف الروماني الفرنسي لوسيان غولدمان، المهندس الرئيسي لهذا الإطار النظري، البنيوية التكوينية على أنها "طريقة تسعى لفهم ديناميكيات علاقات الذات-البنية والمنتجات الموضوعية لهذه العلاقة". يمثل هذا المنهج ليس مجرد تنقيح أكاديمي بل إعادة توجيه أساسية للتحليل البنيوي نحو الوعي التاريخي، والصراع الطبقي، والعلاقة الجدلية بين الذات الجمعية والبنى التي تسكنها وتحولها.

في هذه المحاضرة، سنتناول الأسس المعرفية للبنيوية التكوينية، ونهجها المتميز تجاه البنية الأيديولوجية، وإسهاماتها الدائمة في فهم كيف تتبثق أنظمة المعنى من الواقع الاجتماعي وتشكله. سنتتبع نسبها النظري من خلال هيجل وماركس وباجيه، ونحلل ابتكاراتها المنهجية الأساسية، ونقيم قوتها التفسيرية من خلال تطبيقات محددة في التحليل الأدبي والثقافي.

2. الأسس النظرية: المبادئ الأساسية للبنيوية التكوينية

2.1 التركيب الجدلي للبنى والتكوّن

تمثل البنيوية التكوينية تركيبًا مقصودًا لإطارين تحليليين يبدوان متناقضين: تأكيد البنيوية على النظم العلائقية واهتمام المنظور التكويني بالعمليات التطورية. حقق غولدمان هذا التركيب من خلال دمج نظرية المعرفة التكوينية لـ جان بياجيه مع الماركسية الهيجلية لـ جورج لوكاش. من بياجيه، استعار مفهوم البنى

كأنظمة متطورة تُحافظ عليها عمليات الاستيعاب والتكيف - ما أسماه بياجيه "عملية البناء والهدم". ومن لوكاش، تبني فكرة "النظرة إلى العالم" باعتبارها تعبيرًا عن علاقة الذات الجمعية بالواقع التاريخي. المقدمة الأساسية للبنىوية التكوينية هي أن البنى الاجتماعية والعقلية ليست ثابتة ولا محددة أبدًا، بل هي منتجات للتطور التاريخي. كما قال غولدمان: "البنى ليست عنصرًا مثاليًا أو كائنيًا جديدة، والإنسان هو الذي يعمل جماعيًا وعلى أسس طبقية من أجل خلق هذه البنى أو تغييرها". يمثل هذا قطيعة حاسمة مع الأنثروبولوجيا البنيوية لليفي شتراوس، التي سعت إلى اكتشاف بنى معرفية كونية تتجاوز الخصوصية التاريخية. بينما وضع ليفي شتراوس البنية في العقل اللاواعي، وضعها غولدمان في الممارسة التاريخية (البراكسيس) للجماعات الاجتماعية.

2.2 الذات الفوق - فردية والنظرة إلى العالم

حجر الزاوية في البنيوية التكوينية هو مفهوم "الذات الفوق - فردية" - ليست الفرد المعزول للإنسانية الليبرالية ولا الذات المُحددة تمامًا للماركسية الميكانيكية. اقترح غولدمان أن الفكر والفعل ذا المعنى ينبثق من ذوات جمعية، وخاصة الطبقات الاجتماعية، التي تُطور نظرات متماسكة إلى العالم من خلال موقعها التاريخي داخل البنى الاقتصادية والاجتماعية. تمثل هذه النظرات إلى العالم ليس مجرد انعكاسات أيديولوجية بل "أقصى وعي ممكن" يمكن بلوغه من موقع طبقي معين في ظل ظروف تاريخية محددة.

تعمل الذات الفوق - فردية بشكل جدلي: فهي مشكلة من قبل البنى القائمة وقادرة على تحويلها عبر الممارسة الجمعية (البراكسيس). يحل هذا المفه ما حدده غولدمان كنقطة ضعف مركزية في الوجودية (التي بالغت في التأكيد على الحرية الفردية) والبنيوية الأرتوذكسية (التي قللت من الفاعلية الإنسانية). كما صاغ في كتابه العلوم الإنسانية والفلسفة: "ترتبط البنية ذات المعنى للإبداع الأدبي جدليًا بالبنية العقلية لهذا الفاعل المتعالي، والذي هو في علاقة جدلية مع البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية وهو في تطور وتغير دائمين في الدورة المستمرة للبناء والهدم".

2.3 الفئات التحليلية الرئيسية

تستخدم البنيوية التكوينية عدة فئات تحليلية متميزة:

1. **البنية ذات المعنى:** على عكس أنظمة العلامات التعسفية في اللسانيات السوسيرية، فإن البنى في البنيوية التكوينية هي "ذات معنى" - تعبر عن نظرات متماسكة إلى العالم تتوسط بين الجماعات الاجتماعية والواقع التاريخي.

2. **العلاقة الوظيفية:** كل عنصر داخل بنية يحافظ على علاقة وظيفية مع الكل، حيث تستلزم التغييرات في عنصر واحد تعديلات في جميع أنحاء النظام للحفاظ على التوازن - وهو مفهوم مُستعار مباشرة من علم النفس التطوري لبياجيه.

3. **التشابه البنيوي (الهومولوجيا):** ابتكار غولدمان المنهجي لتحديد التشابهات البنيوية بين مجالات ثقافية مختلفة - على سبيل المثال، بين البنى الاقتصادية والتنظيم الاجتماعي والأنظمة الفلسفية - يسمح بتحليل كيفية تجلّي النظرات إلى العالم عبر تعبيرات متعددة.

4. **التفسير الداخلي والشرح:** تُميّز البنيوية التكوينية بين فهم التماسك الداخلي للعمل (التفسير الداخلي) ووضعه في سياق ظروف إنتاجه التاريخية (الشرح)، مع تمثيل الأخير للحظة السوسولوجية المناسبة للتحليل.

3. البنية الأيديولوجية في التحليل البنيوي التكويني

3.1 الأيديولوجيا كنظرة إلى العالم مُنظمة

في البنيوية التكوينية، الأيديولوجيا ليست وعياً زائفاً (كما في بعض التقاليد الماركسية) ولا نظاماً مستقلاً للعلامات (كما عند ليفي شتراوس). بل تشكل نظرة متماسكة إلى العالم تنبثق من محاولة جماعة اجتماعية جماعية للتأقلم مع وضعها التاريخي. تظهر دراسة غولدمان المؤثرة الإله الخفي هذا المنهج، حيث يتتبع التشابهات البنيوية بين البنية الاقتصادية لفرنسا في القرن السابع عشر، والموقع الاجتماعي لنبلاء الرداء (noblesse de robe)، والرؤية المأساوية في خواطر باسكال ومسرحيات راسين. عبرت فكرة "الإله الخفي" - الإله الحاضر والغائب في آن واحد - عن الموقع المتناقض لهذه الطبقة، المحاصرة بين الملكية والبرجوازية الصاعدة، الباحثة عن قيم متعالية في عالم يحكمه بشكل متزايد علاقات السوق.

يكشف هذا المنهج كيف تعمل البنى الأيديولوجية كاستجابات ذات معنى للتناقضات التاريخية وليس

مجرد انعكاسات للظروف الاقتصادية. كما أوضح غولدمان، أن النظرة الجانسينية (Jansenist) إلى العالم لم

تعكس ببساطة المصالح الاقتصادية لنبلاء الرداء، بل صاغت تجربتهم الأساسية للانتقال التاريخي من خلال بنية لاهوتية وجمالية متماسكة.

3.2 سوسولوجيا الإبداع الثقافي

يقع الإسهام الأكثر تميزاً للبنوية التكوينية في سوسولوجيا الإبداع الثقافي، وخاصة الأدب. رفض غولدمان كلاً من المفهوم الرومانسي للعبقري المنعزل والنظرة الماركسية الاختزالية للأدب كتعبير طبقي مباشر. بدلاً من ذلك، اقترح أن "الإبداع الأدبي هو نتاج الفاعل المتعالي، والذي يمثله المؤلف في هذا الشكل". يحقق الكاتب العظيم ما أسماه غولدمان "التعبير الملائم" عن نظرة جمعية إلى العالم، مانحاً شكلاً جمالياً متماسكاً لأقصى وعي ممكن لجماعة اجتماعية.

يختلف هذا المنهج بشكل كبير عن النقد الأدبي التقليدي والمناهج السوسولوجية السابقة للأدب. بينما يركز الأول على الإبداع الفردي ويركز الأخير على المحددات الاجتماعية الخارجية، تحلل البنوية التكوينية التشابه البنيوي بين الأشكال الأدبية والوعي الاجتماعي. شكل الرواية، على سبيل المثال، يمثل لغولدمان (اتباعاً للوكاش) التعبير الأدبي عن المجتمع الفردي الناتج عن اقتصاديات السوق – تشابه بنيوي رسمي بين البنية الأدبية والبنية الاقتصادية.

3.3 توسيع بيير بورديو للإطار النظري

بينما طور غولدمان البنوية التكوينية بشكل أساسي في مجال سوسولوجيا الأدب، وسّع بيير بورديو مبادئها عبر مجالات ثقافية متعددة من خلال مفاهيم الهابيتوس (Habitus) والحقل (Field) ورأس المال (Capital). تشترك "البنوية التكوينية" لبورديو (وهو مصطلح تبناه أحياناً) مع نهج غولدمان الجدلي تجاه البنية والفاعلية، لكنها توفر أدوات أكثر دقة لتحليل كيف يتم إعادة إنتاج الأيديولوجيات ومنازعتها في الممارسة اليومية.

يمثل الهابيتوس – نظام الاستعدادات الدائمة المكتسبة من خلال التنشئة الاجتماعية – استبطان البنى الاجتماعية التي تولد بدورها ممارسات متماسكة مع تلك البنى. يمثل هذا المفهوم تطوراً يتجاوز تركيز غولدمان على النظرات المتماسكة إلى العالم لتحليل الأبعاد المتضاربة غالباً والمتجسدة والعملية لإعادة الإنتاج الأيديولوجي. يشكل الحقل فضاء اجتماعياً منظماً بمنطقه وتدرجه الخاص، حيث يتنافس الفاعلون على أشكال

محددة من رأس المال (اقتصادي، ثقافي، اجتماعي، رمزي). تحدث الصراعات الأيديولوجية داخل الحقول وبينها حيث يستخدم الفاعلون استراتيجيات للحفاظ على مواقعهم أو تحسينها.

4. تحليل مقارن: البنيوية التكوينية والمناهج البديلة

4.1 المقارنة مع البنيوية الكلاسيكية

التباين بين البنيوية التكوينية والكلاسيكية عميق ومنهجي. بينما سعى ليفي شتراوس لاكتشاف "القواعد النحوية" العميقة للمجتمع التي تنشأ في العقل وتعمل لدى الناس بلا وعٍ، وضع غولدمان البنية في العلاقات الاجتماعية التاريخية المحددة. بينما حلَّ ليفي شتراوس الأساطير كتحويلات لثنائيات ضدية كونية (طبيعة/ثقافة، نبيء/مطهو)، تفسر البنيوية التكوينية المنتجات الثقافية كتعبيرات عن نظرات إلى العالم مُتوقعة تاريخياً. يعكس هذا الاختلاف الجوهرى أنثروبولوجيات فلسفية متعارضة: تفترض بنيوية ليفي شتراوس ضمناً وجود عقل إنساني كوني، بينما تفترض البنيوية التكوينية وجود وعي إنساني متطور تاريخياً يشكله البراكسيس الجمعي. العواقب المنهجية بنفس القدر من الأهمية. تستخدم البنيوية الكلاسيكية التحليل التزامني لأنظمة الأسطورة واللغة، باحثة عن أنماط ثابتة تحت الاختلافات السطحية. تستخدم البنيوية التكوينية التحليل التزامني للتطور التاريخي، متفحصة كيف تنشأ البنى وتتبلور وتتحوّل عبر الصراع الاجتماعي. كما لاحظ أحد الباحثين، حاول غولدمان "إنفاذ النظرية البنيوية من الركود، والجمود، وعدم الفعالية في شرح التغيرات والتطورات التاريخية من خلال تطبيق نظرية التطور التاريخي في البنيوية".

4.2 الحوار والاختلاف عن الماركسية

تحفظ البنيوية التكوينية بعلاقة معقدة مع النظرية الماركسية. تراث من ماركس الفرضية الأساسية أن الوجود الاجتماعي يحدد الوعي، لكنها ترفض الاختزالية الاقتصادية وتدمج فهمًا أكثر دقة للاستقلالية الثقافية. يعدّل مفهوم غولدمان "الأقصى وعي ممكن" فكرة لوكاش عن الوعي الطبقي من خلال الإقرار بقيود الموقع التاريخي مع الحفاظ على إمكانية التحول عبر البراكسيس. يختلف هذا بشكل كبير عن الماركسية البنيوية الألتوسيرية، التي تؤكد على "الاستقلالية النسبية" لأجهزة الدولة الأيديولوجية لكنها تحافظ على نموذج أكثر حتمية للاستدعاء الأيديولوجي. بينما أعلن ألتوسير أن

"الأيدولوجيا تمثل العلاقة التخيلية للأفراد بظروف وجودهم الواقعية"، تحقق البنيوية التكوينية في كيف تشكل هذه العلاقات التخيلية نظرات متماسكة إلى العالم تعكس وتتجاوز محتملاً تلك الظروف في آن واحد. عمل ريموند ويليامز بالتوازي مع غولدمان، مطوراً المادية الثقافية كبديل آخر للماركسية الاختزالية. بينما يشترك مع البنيوية التكوينية في التأكيد على الخصوصية التاريخية ورفض اقتصادوية القاعدة والبنية الفوقية، فقد أولى ويليامز اهتماماً أكبر للتكوينات الثقافية المتبقية والناشئة والتجربة المعيشة اليومية. يشبه مفهومه "بني الشعور" مفهوم غولدمان "لنظرة إلى العالم"، لكنه يؤكد على الأبعاد العاطفية قبل الناشئة للعملية الثقافية بدلاً من التعبير الفلسفي المتماسك.

4.3 المقارنة مع المادية الثقافية (الأنثروبولوجية)

توفر مدرسة المادية الثقافية الأنثروبولوجية التي طورها مارفن هاريس تناقضاً مفيداً مع البنيوية التكوينية. اقترح هاريس أن "الجوانب التكنولوجية والاقتصادية تلعب الدور الأساسي في تشكيل المجتمع" من خلال حتمية أحادية الاتجاه حيث تحدد البنية التحتية البنية، التي تحدد بدورها البنية الفوقية. يختزل هذا النموذج الأيدولوجيا إلى وضع ظاهرة تابعة - وهو موقف ترفضه البنيوية التكوينية صراحةً. بينما تبحث المادية الثقافية عن تفسيرات سببية في العوامل الديموغرافية والبيئية والتكنولوجية، تؤكد البنيوية التكوينية على الاستقلالية النسبية للمجالات الثقافية وتفاعلها الجدلي مع الظروف المادية. على سبيل المثال، يفسر تحليل هاريس لحظر ذبح الأبقار المقدسة في الهند الظاهرة من خلال فوائدها التكيفية للأنظمة البيئية والاقتصادية. كان المنهج البنيوي التكويني سيفحص بالإضافة إلى ذلك كيف يعبر الحظر عن نظرة متماسكة إلى العالم تتوسط العلاقات الاجتماعية والتجربة التاريخية بما يتجاوز وظائفه النفعية.

5. تقييم نقدي والأهمية المعاصرة

5.1 الإسهامات النظرية والقوى

يقع الإسهام الرئيسي للبنيوية التكوينية في حلها الجدلي لإشكالية الفاعلية-البنية التي ابتليت بها كل من المناهج الإنسانية والبنيوية. من خلال تصور الذوات كذوات فوق-فردية والبنى كمحددة وتمكينية في آن واحد، تتجنب خطر الإرادية (voluntarism) من جهة والحتمية (determinism) من جهة أخرى. يوفر ابتكارها

المنهجي المتمثل في التشابه النبوي أداة قوية لتحليل العلاقات بين الأشكال الثقافية والمواقع الاجتماعية دون اختزال الأولى لمجرد انعكاسات للأخيرة.

علاوة على ذلك، يمثل تأكيد البنيوية التكوينية على تماسك النظرات إلى العالم تقدماً حاسماً على المناهج المجزأة للأيدولوجيا. بينما يحلل العديد من التحليلات المعاصرة أجزاء أيدولوجية أو تشكلات خطابية، تصر البنيوية التكوينية على الكلية ذات المعنى للنظرات إلى العالم كاستجابات منظمة للمواقف التاريخية. يظل هذا النهج الشمولي ذا قيمة خاصة لفهم كيف تتربط العناصر الثقافية المتباينة في تقاليد أو حركات يمكن تحديدها.

6. الخاتمة:

تمثل البنيوية التكوينية محاولة متطورة لتتظير البنية الأيدولوجية كبنية محدّدة ومحدّدة في آن واحد، متماسكة لكنها تاريخية، تعبيرية لكنها تحويلية. من خلال دمج التحليل النبوي مع التطور التكويني، تتجاوز الشكلائية الساكنة للبنيوية الكلاسيكية مع الحفاظ على صرامتها المنهجية. من خلال مفاهيم الذات الفوق-فردية، والنظرة إلى العالم، والتشابه النبوي، توفر إطاراً لتحليل كيف يعكس الوعي الجمعي الواقع التاريخي ويشكله في نفس الوقت.

تكمن الأهمية الدائمة للبنيوية التكوينية في رؤيتها الجدلية المتوازنة. إنها تقر بقيود الموقع الاجتماعي دون اختزال الوعي إلى انعكاس ميكانيكي؛ وهي تؤكد الفاعلية الإنسانية دون الانزلاق إلى الإرادية الذاتية؛ وهي تعترف بتماسك التشكلات الثقافية دون إنكار ديناميكيتها التاريخية. في مشهد فكري كثيراً ما يكون مستقطباً بين النزعات الحتمية والبنائية، تقدم البنيوية التكوينية طريقاً وسيطاً لا يزال منتجاً نظرياً. بينما تواجه تشكلات أيدولوجية معاصرة - من القوميات الصاعدة إلى الحركات الاجتماعية التحويلية - يوفّر إصرار البنيوي التكويني على تحليل النظرات إلى العالم ككليات منظمة نابعة من ظروف تاريخية رافعة تحليلية لا غنى عنها. يذكرنا الإطار أن الأيدولوجيات ليست تعسفية ولا أبدية، بل تمثل استجابات ذات معنى، وإن كانت جزئية، لتناقضات تاريخية حقيقية. وبذلك، تحافظ على إمكانية التحول من خلال وعي مُعزّز مع الاعتراف بالقيود البنيوية التي تشكل كل الفكر والعمل.

في التحليل النهائي، قد يكون الإرث الأكثر قيمة للبنىوية التكوينية هو تظاهرها أن التحليل البنيوي لا يحتاج إلى استبعاد الفهم التاريخي، وأن الاعتراف بالتحديد لا يحتاج إلى نفي الفاعلية الإنسانية. تواصل هذه الحكمة الجدلية إعلام النظرية الاجتماعية النقدية، مقدمةً موارد لفهم البنى الأيديولوجية التي تشكّل عالمنا وتجاوزها محتملاً.

المحاضرة 07: أسس البنىوية التكوينية: البنية الداخلية للنص

1. مقدمة في البنىوية التكوينية:

تمثل البنىوية التكوينية منهجية متطورة تتجاوز الثنائيات التقليدية في النظرية الأدبية والثقافية، وخاصة التوتر بين القراءة النصية الشكلية والتأريخ السياقي. تؤكد في جوهرها على أن المنتجات الثقافية - سواء كانت نصوصاً أدبية أو أعمالاً فلسفية أو ممارسات اجتماعية - يجب أن تُفهم على أنها تراكيب ديناميكية يكون تنظيمها الداخلي جزءاً لا يتجزأ من تكوينها التاريخي. يتحدى هذا الإطار كلاً من المناهج الزمنية المتزامنة البحتة (التي تفحص الهياكل كمنتجات نهائية) والمناهج الزمنية التتابعية البحتة (التي تركز فقط على التطور التاريخي دون الاهتمام بالتماسك الشكلي). بدلاً من ذلك، تصر البنىوية التكوينية على دراسة كيفية ظهور الهياكل وتحولها وتحقيقها استقراراً نسبياً من خلال الممارسة البشرية داخل سياقات اجتماعية محددة. يظهر مصطلح "البنىوية التكوينية" بصيغته الأكثر وضوحاً في أعمال لوسيان غولدمان، الذي عرّفها بأنها "دراسة نشوء واختفاء الهياكل". على عكس المناهج الذرية التي تختزل الظواهر إلى عوامل سببية معزولة، أو البنىوية غير التكوينية التي ترى الهياكل كأشياء دائمة وعالمية، تدرك البنىوية التكوينية أن البنى العقلية تنشأ وتتطور من خلال الممارسة الجماعية للمجموعات الاجتماعية. تم توسيع هذا النهج بشكل مثمر في تحليلات بيير بورديو السوسيولوجية وفي مجال النقد التكويني (*la critique génétique*) المتخصص، الذي يركز على مخطوطات الكتاب لإعادة بناء عملية الكتابة. معاً، توفر هذه المناهج مجموعة أدوات متعددة الأوجه لتحليل كيفية تجسيد التراكيب النصية وتوسطها للوعي الاجتماعي.

2. الأسس النظرية: الجذور التاريخية والفلسفية

يكشف النسب الفكري للبنىوية التكوينية عن توليف إبداعي لثلاثة تيارات نظرية رئيسية في القرن العشرين: الماركسية، والبنىوية، ونظرية المعرفة التكوينية. ترث البنىوية التكوينية من الماركسية منهجها الجدلي

والتأكيد على الكلية التاريخية؛ ومن البنيوية، تتبنى التركيز على الأنظمة العلائقية والتماسك الداخلي؛ ومن نظرية المعرفة التكوينية لجان بياجيه، تدمج فهم البنى المعرفية على أنها تتطور من خلال التكيف والتنظيم. اعترف غولدمان صراحة بهذا التوليف، قائلاً إن ماركس وهيجل وفرويد مارسوا جميعهم أشكالاً من البنيوية التكوينية قبل وجود المصطلح نفسه، حيث سعى كل منهم لشرح كيف نشأت الأشكال الحالية من العمليات التاريخية مع الحفاظ على الاتساق المنطقي الداخلي.

كان مساهمة غولدمان المميزة هي إعادة تصوره للعلاقة بين الإبداع الفردي والوعي الجماعي. برفضه لكل من المفاهيم الرومانسية عن العبقرية المنفردة والاختزالات الماركسية الحتمية للثقافة إلى أيديولوجيا الطبقة، اقترح غولدمان أن الإنجازات الثقافية المهمة تعبر عن النظرة إلى العالم (*vision du monde*) لما أسماه "الذات عبر الفردية" - وليس المؤلف الفردي وحده، بل مجموعة اجتماعية يتشارك أعضاؤها في بنى عقلية متماسكة من خلال موقعهم المشترك في العلاقات الاجتماعية الاقتصادية. يحل هذا الصياغة التناقض الظاهري لكيفية إمكانية أن تكون النصوص متماسكة بنيوياً ومحددة تاريخياً في الوقت نفسه: فالتماسك لا ينبع من النفسية الفردية وحدها، بل من البنى العقلية الجماعية التي يعبر عنها الأفراد بوضوح وقوة جمالية خاصتين.

3. الإطار المنهجي: المبادئ والإجراءات

يعمل الجهاز المنهجي للبنيوية التكوينية من خلال عدة مبادئ مترابطة توجه كلاً من التحليل والتفسير. أولاً، يحافظ على منظور جدلي يرى كل ظاهرة ثقافية كجزء مما أسماه غولدمان "الكليات النسبية" - هياكل متداخلة تتراوح من التنظيم النصي المباشر إلى التشكيلات التاريخية الأوسع. هذا يعني أنه يجب تحليل النص الأدبي في وقت واحد ك نظام مكتفٍ ذاتياً من العناصر الشكلية وجزء من هياكل اجتماعية وتاريخية أوسع. يجب على المحلل بالتالي التحرك باستمرار بين التحليل الجزئي للتفاصيل النصية والتحليل الكلي للسياق التاريخي، مع إدراك أن كل مستوى يضيح الآخر.

ثانياً، تستخدم البنيوية التكوينية كلاً من التحليل التزامني والتتابعي، ولكن بلفتة مميزة: يكشف التحليل التزامني التوترات والتناقضات الداخلية داخل الهيكل في لحظة معينة، بينما يتتبع التحليل التتابعي كيف تدفع هذه التوترات تحول الهيكل بمرور الوقت. كما لاحظ غولدمان: "كل حقيقة إنسانية... لا يمكن فهمها إلا كتوتر

فعلني للقوى في حالة توازن ديناميكي، موجه نحو المستقبل". يميز هذا البعد الزمني البنيوية التكوينية عن المناهج الشكلية البحتة، حيث تعامل الهياكل ليس كترتيبات ساكنة بل ك توازنات ديناميكية موجهة باستمرار نحو مستقبلات محتملة قد تتحقق أو تُحجب بسبب القوى التاريخية.

ثالثاً، يحدد المنهج التشابهات البنيوية - المراسلات الهيكلية - بين مجالات مختلفة من الممارسة الاجتماعية، وخاصة بين البنى الاجتماعية الاقتصادية والأشكال الثقافية. تظهر أشهر أدلة غولدمان على هذا المبدأ في كتاب "الإله الخفي"، حيث حدد هياكل متشابهة تربط بين لاهوت الجانسينية، والموقع الاجتماعي لـ "نبلاء الرداء"، والرؤية المأساوية في "خواطر" باسكال ومسرحيات راسين. هذه التشابهات ليست انعكاسات بسيطة أو علاقات سببية حتمية، بل هي تحولات بنيوية يحكمها ما أسماه غولدمان "مبدأ التشابه الكافي" - الحفاظ على أنماط علائقية متشابهة عبر مجالات مادية مختلفة.

4. التطبيق الأدبي: النصوص كنظرات إلى العالم مُهيكل

عند تطبيقها بشكل خاص على التحليل الأدبي، تعامل البنيوية التكوينية العمل الأدبي ك هيكل ذي معنى يعبر بشكل متماسك عن نظرة مجموعة اجتماعية إلى العالم. يتضمن ذلك عدة خطوات تحليلية: أولاً، تحديد الهيكل الجوهرى للعمل من خلال التحليل الشكلي الدقيق؛ ثانياً، إعادة بناء الفئات العقلية التي تنظم هذا الهيكل؛ ثالثاً، ربط هذه الفئات بالوعي الجماعي لمجموعة اجتماعية محددة؛ وأخيراً، وضع هذه المجموعة داخل التحولات التاريخية الأوسع. يصبح الناقد الأدبي، إذن، عالم اجتماع للأشكال، يتتبع كيف تتوسط الهياكل الجمالية التجربة الاجتماعية.

تمثل التحليلات الأدبية لغولدمان نفسه هذا المنهج. في دراسته للرواية الحديثة، جادل بأن شكل الرواية يتوافق بنويًا مع الوعي المُشيء الناتج عن مجاعات السوق، حيث يصبح البحث المُحطَم عن قيم أصيلة في عالم تهيمن عليه السلع المادية هو المبدأ الموضوعي والشكلي المحدد لهذا النوع الأدبي. وبالمثل، أظهر تحليله لباسكال ورأسين كيف أن الرؤية المأساوية - التي تتميز بالحضور والغياب المتزامنين للإله - عبرت عن الوضع المتناقض لنبلاء الرداء، المحاصرين بين الولاء لدولة ملكية والقيم الدينية التقليدية. في كل حالة، يحقق العمل الأدبي ما أسماه غولدمان "الوعي الأقصى الممكن" لوضع مجموعة اجتماعية، معطياً شكلاً جمالياً متماسكاً لما يبقى غير مكتمل في التجربة اليومية.

لهذا النهج آثار مهمة على كيفية فهمنا لقيمة الأدب وتشكيل الشكل الأدبي المتعارف عليه. بدلاً من

تقييم الأعمال بناءً على معايير جمالية خالدة أو عبقرية فردية، تقيّم البنيوية التكوينية أهميتها وفقاً للكفاية التمثيلية التي تعبر بها عن نظرة جماعية إلى العالم والتماسك الشكلي الذي تحققه في هذا التعبير. الروائع هي تلك التي تهيكّل بشكل كامل رؤية للعالم تتوافق مع وعي مجموعة اجتماعية مهمة عند منعطف تاريخي.

5. التوسع السوسولوجي لبورديو: المجال، الهابيتوس، ورأس المال

بينما طور غولدمان البنيوية التكوينية بشكل أساسي في سوسولوجيا الأدب، وسع بيير بورديو مبادئها إلى نظرية شاملة للممارسة قابلة للتطبيق عبر جميع المجالات الاجتماعية. يركز إطار بورديو على ثلاثة مفاهيم مترابطة: الهابيتوس (الميول المُستبطنة التي يشكلها الموقع الاجتماعي)، والمجال (الفضاءات الاجتماعية المُهيكلّة بقواعدها ومخاطرها الخاصة)، ورأس المال (الموارد التي تمنح سلطة داخل مجالات محددة). بالنسبة للتحليل الأدبي، يقدم هذا الثالث أدوات لفهم كيف ينبثق الإنتاج النصي من تقاطع الميول الإبداعية الفردية مع القيود والإمكانات الهيكلية للمجال الأدبي.

تختلف البنيوية التكوينية عند بورديو عن نظيرتها عند غولدمان من عدة نواحٍ: فهي تولي أهمية أكبر للاستقلالية النسبية للمجالات الثقافية، وتحسب بشكل أكمل للفعل الفردي داخل القيود الهيكلية، وتدمج فهمًا أكثر تعقيدًا لكيفية تفاعل أشكال رأس المال المختلفة (الاقتصادي، الثقافي، الاجتماعي، الرمزي) في الإنتاج الثقافي. حيث كان غولدمان يميل إلى رسم تشابهات مباشرة بين الموقع الاجتماعي الاقتصادي والأشكال الثقافية، أصر بورديو على تحليل المنطق الخاص للمجالات الثقافية، والتي تتوسط وتحول القوى الاجتماعية الأوسع وفقاً لتاريخها وأدائها الخاص. هذا يجعل نهج بورديو ذا قيمة خاصة لتحليل كيف تعكس النصوص الأدبية وتكسر البنى الاجتماعية عبر منظور الاتفاقيات الجمالية والصراعات الخاصة بالمجال.

لدراسة البنية النصية الداخلية، يوضح إطار بورديو كيف تمثل الخيارات الشكلية والابتكارات الأسلوبية تحركات استراتيجية داخل المجال الأدبي، حيث يحدد الكتاب مواقعهم بالنسبة إلى الاتفاقيات الراسخة، والمعاصرين المنافسين، والجماهير المتوقعة. قد يتتبع تحليل بنيوي تكويني مستنير ببورديو كيف تستجيب تشظية السرد الحداثي، على سبيل المثال، في وقت واحد لأزمة التمثيل في المجتمع الصناعي، وتتحدى المعايير الأدبية الراسخة، وتشكل شكلاً متميزاً من رأس المال الرمزي للكتاب الذين يدعون وضع الطليعة.

6. النقد التكويني: البنية الدقيقة للكتابة

يمثل تطور موازٍ في الدراسات الأدبية الفرنسية، النقد التكويني (la critique génétique)، نهجاً مكملاً يركز على التكوين الدقيق للنصوص من خلال دراسة المخطوطات، المسودات، الملاحظات، والمواد الأخرى السابقة للنشر. حيث يفحص غولدمان وبورديو التكوين الاجتماعي الكلي للتركيب النصية، يحقق النقد التكويني في عملية الكتابة نفسها كتطور مُهيكل، وإن لم يكن بالضرورة خطياً. كما يُعرّف في "النقد التكويني"، فإن هذا النهج "يدين لمفاهيم النصية البنوية وما بعد البنوية أكثر من كونه مديناً لعلم فقه اللغة والنقد النصي" ويأخذ كاهتمامه الرئيسي "ليس النص 'النهائي' بل إعادة بناء وتحليل عملية الكتابة".

يعمل النقد التكويني بمفهومه الأساسي الخاص: النص السابق (avant-texte)، المعرّف بأنه "جمع نقدي لملاحظات الكاتب، رسوماته التخطيطية، مسوداته، مخطوطاته، نُسخه المطبوعة، براهينه، ومراسلاته" التي توثق تطور النص. يكشف تحليل النص السابق كيف تنشأ التركيب النصية من خلال قرارات متسلسلة، ومراجعات، وأحياناً تحولات جذرية. على سبيل المثال، تظهر دراسة رايموند دوبريه جينيت لمخطوطات فلوير لـ "قلب بسيط" كيف أعيد صياغة النهاية بشكل كبير عبر مسودات متعددة، مع كل نسغة تُهيكل قرار السرد بشكل مختلف. وبالمثل، يتتبع تحليل دانيال فير وجان ميشيل رباطيه لمخطوطات جيمس جويس "الفقرات في التوسع" التي تميز منهجه التأليفي الموسوعي.

هذا التركيز المجهري على عملية الكتابة يكمل التركيز الماكروي للبنوية التكوينية الغولدمانية: حيث يتتبع أحدهما كيف تولد البنى الاجتماعية أشكالاً أدبية، يتتبع الآخر كيف تتحقق هذه الأشكال مادياً من خلال ممارسة الكتابة. معاً، يقدمان نهجاً تكوينياً شاملاً يربط أوسع المحددات التاريخية بأصغر القرارات التأليفية. علاوة على ذلك، فإن انتباه النقد التكويني للتطور غير الخطي والإمكانات المتعددة داخل عملية الكتابة يتردد مع تأكيد غولدمان على الهياكل كتوازنات ديناميكية موجهة نحو مستقبلات محتملة.

7. توليف نقدي: دمج مناهج التكوين النصي

تظهر القوة التفسيرية الكاملة للبنوية التكوينية عندما تُدمج خيوطها المختلفة - سوسولوجيا غولدمان الجدلية، نظرية بورديو في الممارسة، وتركيز النقد التكويني على عمليات الكتابة - في إطار تحليلي متعدد المستويات. يعترف هذا الإطار بأن التركيب النصية محددة في الوقت نفسه من قبل ومحددة للتركيب

الاجتماعية، وأنها تنبثق من التفاعل بين قيود المجال والهابيتوس الفردي، وأن شكلها النهائي يمثل مجرد تحقق واحد لإمكانات متعددة موجودة خلال العملية التأليفية.

يسمح هذا النهج المتكامل بتحليل شامل حقًا للبنية النصية الداخلية. فكر، على سبيل المثال، في كيفية تحليل "البحث عن الزمن المفقود" لبروست. سيوضع نهج غولدماني الهيكل الزمني المعقد للرواية داخل أزمة الوعي البرجوازي في فرنسا في نهاية القرن؛ وسيفحص تحليل بورديوي كيف شكّل أسلوب بروسست المميز ابتكارًا استراتيجيًا داخل المجال الأدبي الباريسي؛ وسيتتبع النقد التكويني كيف نشأ هذا الأسلوب من خلال مراجعات لا تحصى موثقة في النص السابق الضخم للرواية. يوضح كل نهج أبعادًا مختلفة من نفس البنية النصية، موضحًا كيف تجسر البنيوية التكوينية في أوسع معانيها الفجوة بين سوسولوجيا الأدب والتحليل النصي الدقيق.

9. الخاتمة:

تشكل البنيوية التكوينية، في تجلياتها المختلفة، أحد أكثر الأطر المنهجية تطورًا لفهم كيفية تجسيد الأشكال الثقافية للوعي التاريخي. من خلال معاملة النصوص ك هياكل ديناميكية تنبثق من خلال عمليات جدلية - محددة اجتماعيًا ومتماسكة شكليًا في آن واحد - فإنها تتجاوز حدود كل من الشكلية البحتة والاختزالية السوسولوجية الخام. تظل فكرتها الأساسية بأن "البنى العقلية تنشأ وتتغير باستمرار من خلال النشاط البشري" ذات صلة عميقة بأي تحليل يسعى لربط الإنجاز الجمالي بالوجود الاجتماعي.

تظهر الحيوية المستمرة لهذا النهج من خلال تطوره المستمر عبر تخصصات متعددة: في الدراسات الأدبية من خلال إعادة بناء النقد التكويني الدقيقة لعمليات الكتابة؛ في علم الاجتماع من خلال التحليلات البورديوية للمجالات الثقافية؛ وفي النظرية الثقافية من خلال التحقيقات الغولدمانية لكيفية تحقيق النظرات إلى العالم تعبيرًا جماليًا. ما يوحد هذه الممارسات المتنوعة هو التزام بفهم الهيكل تكوينيًا والتكوين هيكليًا - برؤية كل منتج ثقافي ك توازن مؤقت في العلاقات الشكلية وك لحظة في النشوء التاريخي.

بينما نواجه أشكالًا ثقافية جديدة ومنهجيات جديدة لدراستها، تقدم المبادئ التأسيسية للبنيوية التكوينية - حساسيتها الجدلية، انتباهها لمستويات متعددة من التحديد، رفضها لفصل الشكل عن التاريخ - توجيهًا دائمًا. سواء كنا نحلل مأساة من القرن السابع عشر، رواية حدثية، أو سردية رقمية، يمكننا أن نسأل بشكل منتج: أي وعي جماعي يهيكله هذا النص؟ أي نشوء اجتماعي يعبر عنه؟ وكيف يتوسط تنظيمه الداخلي بين القوى

التاريخية والإبداع البشري؟ في السعي وراء هذه الأسئلة، نكرم إرث البنيوية التكوينية بينما ندفع بقدرتها
التفسيرية لسياقات ثقافية جديدة.

المحاضرة 08: البنيوية التكوينية في النقد العربي: مدخل إلى النظرية

1. مقدمة:

يمثل تطوير البنيوية التكوينية لحظة محورية في نظرية النقد في القرن العشرين، حيث ظهرت كاستجابة متطورة للقيود المتصورة في كل من الماركسية الكلاسيكية والبنيوية التقليدية. طور هذا التركيب النظري بشكل رئيسي لوسيان غولدمان، الفيلسوف وعالم اجتماع الأدب الروماني الفرنسي، الذي سعى للتغلب على ما رآه طبيعة سكونية للتحليل البنيوي والحتمية الاقتصادية لبعض المقاربات الماركسية. كان ابتكار غولدمان هو دمج مفهوم "التكوين" - الذي يعني الأصل والتطور والتحول التاريخي - في التحليل البنيوي، مما خلق نموذجاً ديناميكياً لفهم الإنتاج الثقافي.

تأثر عمل غولدمان بشدة بتقليدين فكريين رئيسيين: الماركسية الاجتماعية لجورج لوكاتش والمعرفة التكوينية لجان بياجيه. من لوكاتش، تبنى غولدمان مفاهيم رئيسية مثل "رؤية العالم"، "الكلية"، و"الوعي الطبقي"، والتي وفرت إطاراً لربط الأعمال الأدبية بعمليات اجتماعية وتاريخية أوسع. من بياجيه، اقترض مفاهيم تطويرية حول كيفية تشكل البنى واستقرارها وتحولها عبر عمليات الاستيعاب والتكيف. سمح هذا التركيب الفريد لغولدمان باقتراح أن البنى الأدبية ليست مجرد انعكاسات للواقع الاجتماعي، بل هي متماثلة بنيوياً مع البنى العقلية للجماعات الاجتماعية - وخاصة الطبقات الاجتماعية - المنخرطة في علاقة جدلية مع ظروفها التاريخية.

يمكن فهم جاذبية هذه النظرية للنقاد الأدبيين العرب في النصف الثاني من القرن العشرين ضمن سياقات تاريخية وفكرية محددة. خلال فترة ما بعد الاستعمار، كان المثقفون العرب منخرطين في نقاشات حيوية حول الهوية والحداثة والأصالة الثقافية. بدا النقد الأدبي التقليدي، الذي غالباً ما يركز على التحليل اللغوي والبلاغي، غير كافٍ لمعالجة التحولات الاجتماعية السريعة، والنضالات السياسية، والأسئلة الوجودية التي عبر عنها الأدب العربي الحديث، وخاصة الرواية. قدمت البنيوية التكوينية إطاراً منهجياً يمكنه توطين النصوص أدبياً تاريخياً مع أخذ تعقيدها الشكلي على محمل الجد. وفرت أدوات لتحليل كيف عبرت البنى السردية لروايات مثل روايات نجيب محفوظ، وعبد الرحمن منيف، وإميل حبيبي عن الوعي المتطور للجماعات الاجتماعية التي تتلمس طريقها بين الاستعمار والقومية وتشكيل الدولة.

2. تعريف البنيوية التكوينية: المبادئ الأساسية

في صميمها، تُبنى البنيوية التكوينية على عدة مبادئ مترابطة تميزها عن المقاربات النظرية الأخرى. عرفها غولدمان نفسه بأنها دراسة العلاقات بين بنية العمل الأدبي والبنى العقلية لجماعة اجتماعية، في سياق البنى الاقتصادية والاجتماعية للحظة تاريخية. يرتكز هذا المنهج على عدة مقدمات تأسيسية. أولاً، تفترض النظرية ذاتاً متعالية - ليست المؤلف الفرد، بل الجماعة الاجتماعية أو الطبقة الجماعية. كما أوضح البحث في جذور الذات في البنيوية التكوينية: "البنية الدلالية للإبداع الأدبي مرتبطة جدلياً بالبنية العقلية لهذا الفاعل المتعالي، الذي هو في علاقة جدلية مع البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية ويتطور باستمرار". يمثل هذا ابتعاداً كبيراً عن النقد الرومانسي المرتكز على العبقرية الفردية، وعن بعض المقاربات البنيوية التي اعتبرت المؤلف غير ذي صلة. بالنسبة لغولدمان، فإن المبدع هو وكيل مميز يعبر بشكل متماسك عن رؤية للعالم هي جماعية في الأساس.

ثانياً، مفهوم التجانس البنيوي أو التوازي البنيوي مركزي. جادل غولدمان بأنه لا توجد علاقة سببية ميكانيكية مباشرة بين الظروف الاجتماعية الاقتصادية والمنتجات الثقافية. بدلاً من ذلك، اقترح أن الأعمال الأدبية المهمة تحقق تجانساً بنيوياً - تشابهاً في الشكل والتنظيم - بين العالم التخيلي للنص ورؤية العالم لجماعة اجتماعية. على سبيل المثال، قد تكون البنية التراجيدية لأدب ما متجانسة بنيوياً مع جماعة اجتماعية تعاني من تناقض بين قيمها الطموحة وإمكاناتها التاريخية.

ثالثاً، تقدم النظرية بُعداً تطورياً حاسماً. البنى - سواء كانت أدبية أو عقلية أو اجتماعية - ليست ثابتة. إنها في عملية مستمرة من البناء، والتفكيك، وإعادة البناء حيث تستجيب الجماعات بنشاط للتحديات التاريخية. هذا هو المكان الذي يكون فيه دمج غولدمان لمعرفة بياجيه التكوينية أكثر وضوحاً. هدف التحليل هو تتبع هذه العملية التكوينية: لفهم كيف ولماذا تظهر بعض البنى، وتسود، وتتحول في النهاية.

3. التكيف والتلقي في النقد الأدبي العربي

لم يكن انتقال البنيوية التكوينية إلى الخطاب النقدي العربي فورياً ولا غير نقدي. بدأ استقبالها بجدية في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، بشكل رئيسي من خلال عمل علماء عرب تلقوا تعليمهم في الجامعات الغربية أو انخرطوا في ترجمة الأعمال النظرية الأوروبية. وشملت شخصيات رئيسية في هذا النقل نقاداً مثل

جمال شحروف، الذي طبقت دراساته المبكرة مناهج اجتماعية على الأدب، وصلاح فضل، الذي استكشف المنهجيات النقدية المعاصرة بشكل منهجي. وجدت النظرية صدى لأنها عالجت فجوة منهجية في النقد العربي؛ حيث قدمت طريقة للانخراط مع الأبعاد الاجتماعية والسياسية للأدب - وهو اهتمام ملح للمثقفين الملتزمين بالانخراط الاجتماعي - دون اختزال النصوص إلى مجرد دعاية أو بيانات أيديولوجية.

تضمنت عملية التكيف ترجمة مفاهيمية مهمة. كان على النقاد العرب التفاوض حول مصطلحات غولدمان الأوروبية الثقيلة - المتجذرة في تاريخ البرجوازية الفرنسية أو تراجيديات راسين - وجعلها ذات صلة بالخبرة التاريخية العربية الإسلامية. وإعادة التفكير في طبيعة "الجماعة الاجتماعية" أو "الذات المتعالية" في سياقات حيث كانت التشكيلات الطبقية منسوجة غالباً مع هويات قبلية أو طائفية أو إقليمية. على سبيل المثال، عند تحليل الرواية المحفوظية، استكشف النقاد كيف عبرت بنى سردياته عن رؤية العالم لطبقة وسطى مصرية ناشئة، حبيسة بين القيم التقليدية وضغوط التحديث، وهي جماعة متميزة عن البرجوازية الأوروبية لكنها تؤدي وظيفة تحليلية مماثلة.

علاوة على ذلك، غرس النقد العربي نظرية غولدمان بهوم خاصة بإرثه الأدبي. يعني التقليد العربي القوي في التحليل البلاغي أن النقاد كانوا منتبهين بشكل خاص للبنى الشكلية واللغوية للنصوص. وفرت البنيوية التكوينية إطاراً لربط هذا التدقيق الشكلي بفهم اجتماعي أوسع. بدأ النقاد في تحليل كيف كانت التقنيات السردية، والأنماط الرمزية، والخيارات النوعية في الشعر العربي الحديث والروايات متجانسة بنيوياً مع العقلية الجمعية للجماعات التي تعاني من الحرب، والنزوح، أو السلطوية.

تم توثيق هذه الفترة من التكيف في العديد من الدراسات النقدية والبيانات النظرية. ويكشف مسح هذه المنح الدراسية عن جهد متسق لاختبار وتحسين نموذج غولدمان. على سبيل المثال، يمكن رؤية تطبيق تأسيسي في تحليل الرواية العراقية شارع البط لزيد الشهيد. استخدم الباحثون إطار غولدمان لإظهار "رؤية العالم للطبقات الاجتماعية المختلفة في الرواية وكيف تتأثر بالظروف الاقتصادية"، مما يكشف النص كتعبير بنيوي عن الوعي الجمعي المشكل بتاريخ العراق الحديث المضطرب. مثل هذه الدراسات وضحت فائدة المنهج وشجعت على اعتماده على نطاق أوسع.

4. البنيوية التكوينية في الممارسة: التطبيق على النصوص العربية

يتبع التطبيق العملي للبنىوية التكوينية عموماً عملية تحليلية متعددة المراحل. أولاً، يحدد الناقد البنية الجوهرية للعمل الأدبي - نظامه الداخلي للعلاقات بين الشخصيات، والموضوعات، والرموز، والتقدم السردى. الهدف هو تمييز العمل ككل متماسك، "بنية دالة". ثانياً، يبحث الناقد في الفترة التاريخية لإنتاج العمل لتحديد الجماعات الاجتماعية المهيمنة ورؤى عالمها المتصارعة. ثالثاً، والأهم، يثبت الناقد تجانساً بنيوياً بين البنية الأدبية والبنية العقلية لجماعة محددة. أخيراً، يتموضع التحليل ضمن سرد تكويني، موضحاً سبب ظهور هذه البنية المحددة في تلك المرحلة التاريخية.

توضيح مقنع لهذه الطريقة هو تطبيقها على الرواية العراقية شارع البط لزيد الشهيد. تتعامل الرواية مع الاضطرابات الاجتماعية العميقة التي سببها الحرب والصراع في العراق. فلتحليل البنيوي التكويني، كما قدم في بحث معاصر، لا يكفي فقط بفهرسة موضوعات الرواية من خسارة ونزوح. بدلاً من ذلك، يسعى إلى البنية الدالة - ربما بنية السرد المجزأ والانزياح الزمني - التي تنظم النص بأكمله. ثم يربط الناقد هذه البنية السردية بالوعي الجمعي لجماعة اجتماعية محددة، مثل المثقفين الحضريين العراقيين. قد يكمن التجانس في كيف يعبر التجزؤ الشكلي للرواية بشكل محاكي عن رؤية العالم المحطمة لهذه الجماعة وتجربة القطيعة التاريخية في مواجهة الغزو، والعقوبات، والعنف الطائفي.

سيعمق التحليل أيضاً استخدام غولدمان لمفاهيم الوعي الكامن والوعي الفعلي. فالوعي الفعلي "للجماعة هو فهمهم الحقيقي، غالباً المتناقض، لوضعهم. و"وعيهم الكامن" هو أقصى درجات الوعي التي يمكنهم تحقيقها لدورهم التاريخي ومصالحهم. فللعمل الأدبي العظيم، بالنسبة لغولدمان، يعبر عن هذا الوعي "الكامن" أو "أقصى ما هو ممكن". وبالتالي، قد يجادل الناقد أن شارع البط، من خلال بنيته نفسها، يحقق فهماً تخيلياً للمحنة العراقية يتجاوز الصور النمطية الأيديولوجية لعصره، مانحاً شكلاً لفهم جمعي كامن. تم تطبيق هذه المقاربة المنهجية بشكل مثمر على أنواع وعصور مختلفة ضمن الأدب العربي. تم استخدامها لتحليل:

- جنس المقامات الكلاسيكي في علاقته برؤية العالم لطبقة بيروقراطية في العصور الوسطى.
- القصيدة العربية الحديثة كتعبير عن البنى العقلية لأجيال تتلمس طريقها مع هوية ما بعد الاستعمار.
- صعود الرواية التاريخية في العالم العربي كمتجانسة بنيوياً مع مشاريع بناء الوعي القومي.

5. الإطار المنهجي والعملية التحليلية

يتطلب إجراء تحليل بنيوي تكويني مقارنة منضبطة خطوة بخطوة توازن بين القراءة الدقيقة وعلم الاجتماع التاريخي. يحدد الإطار التالي المراحل الأساسية لهذه العملية المنهجية، مستنداً إلى توجيهات غولدمان نفسها وتحسين النقاد العرب لها.

المرحلة 1: التحليل الجوهرى للنص الأدبي.

الخطوة الأولى والأكثر حسماً هي التحليل البنيوي الشامل للعمل الأدبي نفسه، باعتباره معزولاً. يجب على الناقد تحديد تماسك العمل الداخلي - بنية الدالة. وهذا يشمل:

- رسم الخرائط للثنائيات الأساسية (مثل: التقليدي/الحداثي، المدينة/القرية، الحرية/القدر).

- تتبع تطور وتحول الموضوعات والرموز المركزية.

- تحليل الصوت السردي، وبنية الحبكة، والمحددات النوعية.

النتيجة ليست ملخصاً موضوعاتياً بل وصفاً للشبكة العلائقية التي تشكل وحدة النص الشكلية. أصر

غولدمان على أنه فقط بعد إنشاء هذه البنية الجوهرية الموضوعية يمكن للمرء أن يسعى بشكل شرعي للروابط مع الواقع الخارجي.

المرحلة 2: التوطين التاريخي وتحديد الجماعة الاجتماعية.

بالتوازي مع التحليل النصي، يحقق الناقد في السياق الاجتماعي التاريخي لإنتاج العمل. الهدف هو

تجاوز الخلفية التاريخية العامة لتحديد الجماعة الاجتماعية المحددة التي قد تكون رؤية عالمها متجانسة مع

بنية النص. وهذا يتطلب بحثاً تاريخياً للإجابة على أسئلة مثل:

- ما هي الطبقات أو الجماعات الاجتماعية المهيمنة والناشئة في هذه اللحظة التاريخية؟

- ما هي التناقضات الأساسية، والطموحات، والمعضلات التي تميز تجربتها الجمعية؟

- ما كان "أقصى وعي ممكن" لها في هذه الحالة؟

غالباً ما تُعرّف الجماعة، وإن لم يكن حصرياً، بمصطلحات طبقية (مثل: البرجوازية الصغيرة،

الأرستقراطية المالكة في انحدار، المثقفون الناشئون).

المرحلة 3: إثبات التجانس البنيوي.

هذا هو جوهر التفسير المنهجي. يبني الناقد حجة صارمة تظهر توازياً بنيوياً بين العمل الأدبي ورؤية عالم الجماعة. لا يتعلق هذا بإيجاد تطابقات رمزية واحد ا لواحد (الشخصية X تمثل القوة الاجتماعية Y). بدلاً من ذلك، يتعلق بإظهار أن شكل النص - توتره الدرامي، حله السردي أو عدم وجوده، اقتصاده الرمزي - يعكس شكل الوعي التاريخي للجماعة. على سبيل المثال، قد تكون البنية الروائية غير المحسومة، مفتوحة النهاية، متجانسة بنيوياً مع جماعة اجتماعية محاصرة في تناقض تاريخي لا يمكن حله.

المرحلة 4: التفسير التكويني.

أخيراً، يوضع التحليل ضمن إطار ديناميكي تطوري. يشرح الناقد تكوين كل من البنية الأدبية والوعي الجماعي. وهذا يتضمن إظهار كيف أن البنية هي استجابة إبداعية تخيلية لمشكلة أو توتر تاريخي محدد. كما يضع العمل ضمن عملية أوسع للإنتاج الثقافي، مقارناً إياها بشكل محتمل بأعمال معاصرة أخرى تعبر عن وجوه مختلفة لنفس الوعي الجماعي أو رؤى عالم جماعات معارضة.

نموذج غولدمان بأكمله هو رفض للتحليل السكوني. كما تلاحظ الأبحاث، تنفذ نظريته البنيوية "من الركود، والجمود، وعدم الفعالية في تفسير التغيرات التاريخية" من خلال دمج التكوين. لذلك، يجب على التطبيق الناجح ليس فقط وصف تجانس بنيوي بل أيضاً تفسير ظهوره ودوره في العملية الثقافية والتاريخية المستمرة.

6. الخاتمة والاتجاهات المستقبلية

تمثل البنيوية التكوينية، كما تم تقديمها وتكييفها ضمن النقد الأدبي العربي، أكثر من مجرد استيراد لنموذج نظري أوروبي. إنها ترمز إلى تركيب منهجي مدروس ومنتج أثري التقليدي العربي. من خلال توفير إطار يحترم السلامة الجمالية للنص الأدبي مع الإصرار في الوقت ذاته على تاريخيته العميقة، قدمت أداة قوية لفهم كيف ينخرط الأدب العربي الحديث بشكل فعال ويعطي شكلاً للصدمات، والطموحات، وتوقعيات المجتمعات العربية في الفترات الحديثة والمعاصرة.

تكمن مساهمتها الكبرى في حلها الجدلي للثنائيات النقدية طويلة الأمد: بين الشكل والمحتوى، بين العبقورية الفردية والتحديد الجماعي، بين التحليل النصي والسياق التاريخي. بالنسبة للنقاد العرب، خدمت كجسر بين إرث غني من الدقة البلاغية واللغوية والحاجة الملحة لفهم الأدب كقوة اجتماعية وسياسية.

يشير مستقبل البنيوية التكوينية في النقد العربي إلى عدة اتجاهات واعدة. أولاً، تدعو للتطبيق على أنواع جديدة وناشئة، مثل الأدب الرقمي، السرد المصور، والسينما، لاختبار مرونة مفاهيمها الأساسية. ثانياً، يمكنها الدخول في حوار مثمر مع نماذج نقدية أخرى اكتسبت شهرة، مثل دراسات ما بعد الاستعمار، دراسات النوع الاجتماعي، والنقد البيئي. على سبيل المثال، يمكن الجمع بين التحليل البنيوي التكويني والنظرية النسوية لاستكشاف كيف تعبر الأشكال الأدبية عن رؤية العالم للنساء كجماعة اجتماعية متميزة داخل تشكيلات طبقية تاريخية محددة. أخيراً، تستمر مهمة التنقيح النظري المستمرة. النقاد العرب في موقع جيد لمواصلة تطوير فهم النظرية لـ "الجماعة الاجتماعية" في السياق العربي متعدد الأوجه، حيث تُشكل الهويات عبر تقاطعات معقدة للطبقة، والإثنية، والطائفة، والجنسية.

خاتمة:

تقف البنيوية التكوينية لغولدمان، كما استقبلها وأعاد صياغتها العلماء العرب، ليس كأرثوذكسية جامدة بل كتقليد منهجي حي. تكمن قيمتها الدائمة في قدرتها على توليد قراءات ثاقبة، تاريخية التأسيس، وحساسة شكلياً للنصوص الأدبية – وهي قدرة تبقى أساسية لممارسة نقدية ملتزمة بفهم العلاقة العميقة والمتطورة باستمرار بين الأدب العربي والعالم الذي ينبثق منه.